# سنوات السلام (1885 – 1914)

**انصرم زمن السياسة الصغرى:**
**وسيأتي القرن القادم بالصراع من أجل التركة،**
**الذي سيجبرنا على ممارسة سياسة عظمى.**

فريدريك نيتشه،
ما وراء الخير والشر

ضجت ميونيخ بالحمى في شمس الصيف اللاهبة. في الثامن والعشرين من حزيران عام 1914 قتل منتمون إلى منظمة «اليد السوداء» الصربية السرية الأمير فرانس فيرديناند، وريث تاج مملكة النمسا / المجر المزدوجة. وأخفقت محاولات استمرت أسابيع متعددة في وضع حد للتوترات التي تصاعدت بسرعة بين القوى العظمى الأوروبية. وحين أعلن رايش القياصرة التعبئة، رد الرايش الألماني بإعلان الحرب على روسيا، وأصدر الملك البافاري لودفيج الثالث أمرا يوميا إلى جيشه قال فيه: «إن شرف رايشنا ومصير وطننا في الميزان، وهما يهيبان بنا أن نمتشق سيوفنا». وجد التفكير الحافل بالأبهة، ووجدت الثقة العمياء بالقوة العسكرية الخاصة، تعبيرهما في لغة العصر الانفعالية، التي جعلت. وعلى رغم خلوها من أي مضمون، الكلمات الملكية، الخالية من أي مضمون، تسعّر حماسة الكتل المحتشدة أمام مقر الملك، كما جعلت إعلان الحرب في الثاني من آب عام 1914

يطلق هتافاتها المؤيدة، التي شارك فيها أمام قاعة المحاربين عامل مياوم من براوناو على نهر الإن النمساوية، التقطت صورة له بمحض الصدفة.

## عصر ولي العهد

«أضاءت ميونيخ». عندما أنهى توماس مان رواية «جلاديوس داي» في ميدان أوديون، لم يكن يعلم أن ادولف هتلر سيصرخ بعد عشرة أعوام في المكان ذاته مؤيدا انفجار الحرب العالمية. رسم موظف البلدية والأديب الوافد إلى المدينة من لوبيك توماس مان لوحة أخاذة لعاصمة بافارية تعينت صورتها ببهاء وثراء عصر ولي العهد، وأبهجت المقيمين فيها وزوارها بواجهات معابدها الكلاسيكية وكنائسها المبنية على الطراز القوطي الجديد، في حين أحاط المقر الملكي وكنيسة التياتينر بالميدان الملكي أمام قاعة المحاربين، وقاد شارع لودفيج العظيم الأبعاد إلى الجامعة وبوابة النصر، حيث اقترنت القدرة على الانجاز العلمي بالوعي الذاتي العسكري عبر لغة كلاسيكية الصياغات، مثلما جمعت نوبة حراسة شينكلس الجديدة في مركز برلين بيت سلاح شلوترس وجامعة هومبولدت بعضهما إلى بعض، في دليل على أن السياسة العظمى تحتاج إلى ركائز روحية، وأن المعرفة قوة.

بتأملها انطلاقا من برلين، أطلق على العقود السابقة للحرب العالمية اسم العصر الفيلهلميني ـ نسبة إلى الأمبراطور فيلهلم الذي يسميه العرب غليوم ـ. في هذا العصر، كانت ميونيخ غير برلين، واختلفت ظروف مملكة بافاريا، ثاني أكبر دولة اتحادية في الرايش الألماني، عن ظروف بروسيا، وكانت الرؤوس الليبرالية تنزح من الشمال إلى عاصمة بافاريا الكاثوليكية المبنية على الطراز الباروكي، وكان المثقفون، الفارون من الطابع البروتستانتي المحافظ في عاصمة الرايش ومن مناخها القاسي، يلقبون هنا «مشاعل الشمال»، في حين كانت مملكة بافاريا تؤكد حقوقها الخاصة في الشؤون العسكرية والبريد والاتصالات تجاه بروسيا، وتحافظ بفضل رئاسة

أركان خاصة وطوابع خاصة وممثليات ديبلوماسية خاصة على وهم الدولوية البافارية الخاصة، وكان ولي العهد لويتبولد يمثل الملكية بوصفه قيما على «المملكة»، بينما غرق الملك أوتو، شقيق الملك لودفيج الثاني الذي قتل بطريقة غامضة، خارج ميونيخ في غيبوبة فكرية دائمة، أسلمته إلى موت بطيء داخل أسوار النسيان.

تعالى في ميونيخ الاحتجاج الليبرالي، عندما سجل القيصر فيلهلم أثناء زيارة قام بها إلى العاصمة البافارية كلمات لاتينية في كتابها الذهبي تقول: «إرادة الحكم هي القانون الأسمى». كان تألق الملكية الأسطوري جزءا من الماضي في بافاريا الكاثوليكية، حيث افتقرت صور الرغبات المطلقة إلى قوة إقناع، نتيجة مرض الملك العقلي، ولأنه لم يحكم بافاريا ملك أو برلمان: رغم أن المملكة أديرت بطريقة لا عيب فيها، فبينما أدار المنتسبون إلى السلالة المالكة والنبلاء البافاريون ممتلكاتهم وانصرفوا إلى متابعة ميولهم العلمية والفنية، أو تولوا مناصب احتفالية في البلاط، كانت الإدارة والقضاء والاقتصاد والعلم في أيدي موظفين مجدين تأهلوا أفضل ما يكون التأهيل، ومارس مستشارون وأساتذة برجوازيون قدموا في الغالب من مدن الحرف الناشطة في بافاريا الدنيا وشفابن وفرانكن نفوذا مقررا على حياة البلاد العلمية والاقتصادية. مما جعل هذه البلاد دولة سلطوية تدار بطريقة نموذجية، منذ أقام ماكسيميليان جراف فون مونتجيلاس في عام 1806 مملكة بافاريا من فوضى انهيار الرايش الروماني المقدس.

ولد أوسكار نيدرماير يوم 8 تشرين الثاني عام 1885 في فريزينج كطفل بكر لمساعد المهندس فريدريش نيدرماير، المنتسب إلى الطبقة الوسطى، حاملة الدولة في المملكة[1]. وكان أهل الأب قد جاؤوا من بافاريا الدنيا،

1. شجرة عائلة الأسرة نيدرماير في أوراق أوسكار ريتر فون نيدرماير، أرشيف الحرب البافاري، مع ملاحظات تكميلية قدمها الحفيد د. أوسكار نيدرماير، داخاو، خلال محادثة جرت يوم 23 كانون الثاني عام 1998 في ميونيخ.

حيث يمكن إثبات وجود أسلافه وثائقيا منذ عام 1634 في أيشندورف، الموقع الميسور والمريح في منتصف الطريق بين لاندسهوت وباساو. ولد جورج نيدرماير، جد أوسكار، عام 1812، خلال حروب التحرير ضد نابليون، وبلغ مكانة اجتماعية وبرجوازية مرموقة كتاجر في شتراوبنج، وتزوج من إبنة مستشار قضائي وصار مستشارا في البلدية وقاضيا في المحكمة التجارية، وشارك بصفته قائد فرسان في الدفاع الذاتي البافاري، الميليشيا المحلية، في احتفالات خميس الجسد السنوية وهو ممتطيا صهوة جواده. أما ابنتاه جوزفين وآنا فقد تزوجتا من مستشار في البلدية ومحام، بينما عد ولداه جورج وكارل من تجار شتروبنج وريجنسبرج المرموقين، وعملا مستشاري بلدية في مدن الدوناو ذات الإدارة الذاتية.

غادر فريدريش نيدرماير، الإبن الأصغر للتاجر الشتراوبنجي ومستشار البلدية دافيد نيدرماير وطنه البافاري الادنى، وذهب إلى ميونيخ من أجل الدراسة في المدرسة التقنية الملكية العليا. وقد وفق باعتباره أول أكاديمي في الأسرة بين الميل الفني والاهتمام التقني والطموح العلمي والاجتهاد الخارق، حتى أن أحد أحفاده وصفه عام 1998 باحترام كـ«دابة عمل». وجد مساعد المهندس فريدريش وقتا كافيا في بداية مساره الوظيفي للكتابات العلمية، ونشر قبل ولادة إبنه الأول أوسكار دراسات علمية عن ماتياس جرونفالد، لا زال البحث التاريخي الفني في أيامنا يخصها باهتمامه[2]. ونالت دراسة له نشرت عام 1884، جائزة المدرسة الملكية التقنية العليا في ميونيخ. وقد تابع ميوله الفنية فيما بعد أيضا، حيث كان يرسم ويلون في أوقات فراغه، وهي ميول قاسمه إياها ولداه أوسكار وفريدريش.

تسلق مساعد مهندس البناء المصمم والموهوب في معارج البيروقراطية البافارية. وبما أنه كان موظف دولة، فقد تنقل كثيرا مع أسرته وقادته وظيفته

2. مجلة الفن الباقي، الملحق، العام السادس عشر، الصفحة 723 ـ 725.

إلى مدن الإقليم البافاري الأدنى والفرانكي الأعلى، وأوصلته إلى فريزينج وريجنسبورج ولاندسهوت، إلى أن أنهى مسيرته الشريفة في ميونيخ، بصفته مستشارا وزاريا ومستشارا سريا لدى سلطة البناء العليا في الدولة، حيث عاشت الأسرة منذ الحرب العالمية الاولى في منزل طابقي غير بعيد عن الجامعة وبوابة النصر. إلى هذا، كان فريدريش ينتقل مع زوجه وأولاده لقضاء الصيف في استراحة الأسرة في جرافيلفينج، التي كانت لا تزال ريفية آنذاك. وكان الموظفون الوزاريون البافاريون يعيشون في ظروف منظمة وواضحة.

أنجبت إيما، إبنة المستشار الطبي الأعلى في بافاريا الدنيا ستة أبناء بعد أوسكار، مات احدهم وهو طفل، وقتلت أخته الصغرى في حادث وقع في تشرين الثاني عام 1918، وبقيت أختان أخريان عازبتين. كان على أوسكار وإخوته تحقيق توقعات الأبوين، واجتياز المدرسة الثانوية، والدراسة في ميونيخ. وقد لاحق أخوا أوسكار الأصغران، فريدريش المولود عام 1887، والملقب ب فريتز، وريتشارد المولود عام 1890، الهدف المحدد لهما، فدرس فريتز الطب في ميونيخ شأن جده لأمه، وتخرج ريتشارد كأبيه من المدرسة التقنية العليا. وصار الشابان كأبيهما عضوين فاعلين في أخوية راتيسبونيا، التي كان معظم أعضائها من ريجنسبورج وبافاريا الدنيا.

حصل أبناء فريدريش الثلاثة على شهادة الدكتوراه، وبقوا جميعهم، عدا أوسكار، لصيقين بنمط الطبقة الوسطى البرجوازية في بافاريا، وأخلصوا للوطن البافاري فلم يغادروه إلى سواه. تلقى الطبيب الدكتور فريتز تأهيله كجراح عند فيرديناند ساوربروخ، أكثر جراحي عصره شهرة. وأدار فيما بعد مشفى مدينة باساو، وكان طبيبا مرموقا. أما الدكتور المهندس ريتشارد فقد أنهى مساره الوظيفي عام 1955 في مرتبة مدير مصلحة اقتصاد المياه في عاصمة الدولة البافارية. أمضى الأخوان بتشجيع من شقيقهما أوسكار سنوات عديدة في إيران والقوقاز وأفغانستان، حيث أظهرا اهتمامات طبيعية وفكرية

تتجاوز اختصاصيهما، وبقيا مخلصين لوطنهما ولنمط الحياة البرجوازية العادي، بينما تحول أوسكار نيدرماير إلى ضيف على نمط حياة أسرته التقليدي، ما أن انخرط في مدارات الشرق والسياسة.

أمضى أوسكار عامه الدراسي الأخير في ثانوية العلوم الإنسانية بمدينة الرايش القديمة ريجنسبورج، بعد أن كان قد غير مدرسته مرات عديدة بسبب انتقال الأب من مكان إلى آخر. في هذه المدينة التي أسسها الرومان، تقاطعت طرق تصل الشمال بالجنوب، والشرق بالغرب. وللعلم، فإن ريجنسبورج لا تدين بمكانتها التاريخية لبافاريا، بل للرايش القديم، بما أن «مجلس الرايش الدائم» واصل الانعقاد فيها حتى عام 1806. ومع أنها لم تتسم بأي بهاء ملكي، فإنها نعمت بثروات جعلتها ميسورة، بدت مظاهرها على أزقة العصر الوسيط وبيوت مواطنيها المتقنة البناء، ثم شهدت بعد أن ألحقت ببافاريا منذ عام 1810، نهوضا اقتصاديا متجددا وازدهارا برجوازيا خلال عصر ولي العهد، فقد انعش توسيع مرفأ الدوناو طريق السفن إلى الشرق، ووجه اهتمام المدينة ومواطنيها نحو البلقان والبحر الأسود ودوله المجاورة.

كان نيدرماير يتذكر في الأوضاع اللاحقة الصعبة حدثا تربويا عاشه خلال سنوات دراسته في ريجنسبورج، فقد كانت أغنية النيبيلونجن، المكتوبة باللغة الألمانية العليا الوسيطة، «إلياذة» هوميروس، مادتا قراءة إلزامية في ثانويات بافاريا. وكان القسم الثاني من النشيد العظيم هو الذي ترك انطباعا عميقا لدى أوسكار، حتى أن ضابط الحرب العالمية الثانية كان يقرأ مقاطع طويلة من أبيات النشيد عن ظهر قلب أمام ضباط أركانه. ما الذي كان يسحره في هذه الملحمة الوطنية؟. هل كان رجل الأفعال الغامض والواسع الحيلة والصاحي هاجن، الذي دفعه إخلاصه الشديد للملكة البورجوندية إلى ارتكاب الخيانة وجعله يقاتل إلى أن هلك؟. أم أنه كان الموكب المأساوي، الذي سار على امتداد نهر الدوناو في طريقه نحو الشرق، حيث لقي ملوك

البورجونديين حتفهم في الفيافي المهلكة أثناء القتال ضد شعب من الفرسان يسكن آسيا الوسطى؟.

إن السحر الذي دام مدى الحياة، ومارسته أغنية العصر الوسيط البطولية، يكتسب أهمية فريدة، إذا ما نظرنا إلى البشر والمناطق، التي اجتذبته بصورة متكررة خلال حياته. يلعب منشدو الملاحم، حفظة تاريخ القبائل الشفهي الموروث، إلى اليوم دورا دينيا واجتماعيا مركزيا في إيران وعند شعوب آسيا الوسطى التركية. بدوره، كان نيدرماير يعتبر نفسه معلما ومستشارا معتمدا للأجيال المقبلة: فقد أهدى في صيف عام 1944 إلى أحد الأطفال بالتبني نسخة من أغنية النيبلونجن مع إهداء تحذيري كتبه بألمانية العصر الوسيط العليا[3].

صار أوسكار نيدرماير أول ضابط محترف في أسرته، فقد انتسب بعد الثانوية العامة، التي حصل عليها عام 1950، إلى فوج المدفعية الميدانية العاشر في إيرلنجن[4]. قبل هذا التاريخ، وإذا ما غضضنا النظر عن قيام جده بنشاط عسكري في المليشيا البافارية، كانت الأسرة حريصة على ممارسة وظائف مدنية، وكان موقفها هذا يتفق تماما مع سلوك البرجوازية البافارية، التي رفضت خلال فترة طويلة الخدمة في الجيش، فلم يلعب العسكر البافاري، بخلاف العسكر البروسي، أي دور اجتماعي وسياسي بارز في تأسيس الرايش الألماني. ومع ان بافاريا كانت تتطلع في القرنين الثامن والتاسع عشر إلى حماية كيانها الأرضي ووجودها كدولة متوسطة الحجم تقع بين النمسا وفرنسا وبروسيا، فإنها لم تكن مهيأة أو مستعدة لخوض حروب غزو وتوسع، وأظهرت القوات البافارية في منتصف القرن التاسع عشر سائر

3. لا يزال الكتاب في حوزة مرافق نيدرماير في حينه، العقيد المتقاعد كونراد بار، الذي يعيش في نوبيبرج قرب ميونيخ.

4. تابع مسار اوسكار نيدرماير العسكري من ملفه الشخصي الموجود في تركته ضمن الأرشيف العسكري الاتحادي في فرايبورغ.

سمات الجيش المسالم، وظهرت عام 1866 في الحروب الخاسرة ضد بروسيا الأخطاء القيادية والعيوب التدريبية الجسيمة.

لم ترتفع مكانة العسكر لدى البرجوازية البافارية إلا بعد الحرب الظافرة ضد فرنسا وتأسيس الرايش عام 1871. إن اللون الأزرق الفاتح، الذي ميز البذة العسكرية البافارية عبر السنين صار شيئا فشيئا أغمق، واقترب من اللون الأزرق البروسي. واكتسب الجيش بمرور السنوات مكانة اجتماعية قريبة من مكانة الجيش البروسي. لئن كان ضباط بافاريا قد افتقروا إلى الوعي الأصنافي النخبوي الذي وسم هيئة الضباط البروسيين، بعد أن انطبعوا بطابع نبلاء بروسيا، فإن بافاريا أعطت بالمقابل قيمة كبيرة للتعليم، كما رأى أبناء البرجوازية الليبرالية النزعة في مهنة الضابط وظيفة تزايدت جاذبيتها بالنسبة إليهم / بعد أن اقترنت إرادة العمل عندهم بالاستعداد لدعم انضواء بافاريا في الرايش وتعزيز الموقع الذي أسسه بسمارك له كقوة عظمى. وعلى كل حال، فإن ميونيخ بقيت بالنسبة إلى الجيش البافاري نقطة تقاطع ملكية وثقافية تتمتع بقوة لها هوية خاصة، لكن مركز الرايش السياسي والعسكري بقي عاصمته برلين.

مر مسار الطالب الضابط الشاب أوسكار نيدرماير في سياقاته المرسومة مسبقا. كان فوج المدفعية الملكية البافارية العاشر وحدة متميزة[5]. وكان على المدفعي أوسكار مراعاة الدقة الرياضية في الخدمة والتدريب، بينما حددت تراتبية الجيش المحطات التالية من درب حياته. رفع نيدرماير في الرابع والعشرين من شباط عام 1906 إلى رتبة مساعد، وصار ملازما ثانيا في الثامن من آذار عام 1907. وكان تقويم رؤسائه له جيدا، فقد اعتبروه مجدا ومندفعا، وامتدحوا ضميريته وأشكال تعامله مع الآخرين. إلا أنه لم يشعر بالرضا عن

5. جورج كالب: فوج المدفعية الملكية البافارية العاشر، ميونيخ 1938. والاركان العامة البافارية، ميونيخ 1999.

التدريب والخدمة في فوجه، الذي يبدو أنه فشل في إقامة أي ارتباط وثيق معه. كان الشاب النشيط فكريا والطموح يبحث عن صلة مع عالم الفكر، تدفعه إلى ذلك تربيته في بيت أسرة تدين بوضعها البرجوازي إلى تربيتها.

كانت إيرلنجن، مقر فوج أوسكار نيدرماير، مدينة جامعية أيضا، أتاحت له فرصة الدراسة الأكاديمية إلى جانب الخدمة العسكرية. صحيح أن المدرسة العليا التي افتتحت عام 1743 لم تكن بين أولى جامعات الرايش ولم تملك مرتبة وسمعة جامعة ميونيخ. مع ذلك، كانت إيرلنجن موقع بحث وتأهيل محترم، اشتهر من أساتذتها يوهان جوتليب فيشته ولودفيج فويرباخ والمستشرق المهم فريدريش روكارت، فضلا عن أنها شهدت في سنوات وصاية الأمير ولي العهد الأربع وعشرين ازدهارا غير مسبوق.

تطورت كذلك مرافق العلم الحديث في مقاطعة فرانكن من منطقة السيادة البافارية، فتأسس عام 1885 معهد الحيوان، ثم مبنى الدراسات التابع للدولة قرب حديقة القصر. بعد تأسيس معهد النباتات عام 1892 ومعهد الفيزياء عام 1894، مولت مملكة بافاريا عامي 1895/ 1896 «معهد المعادن والجيولوجيا»، الذي أدمجت في بنائه الجديد بوابة كنيسة القصر السابقة. وقد باشر أوسكار نيدرماير هنا دراساته الجيولوجية منذ الفصل الدراسي الشتوي عام 1907، إلى جانب قيامه بخدمته العسكرية[6].

كان مدير المعهد الجيولوجي ـ المعدني الأستاذ الدكتور هانس لينك معلم أوسكار الأكاديمي، الذي أشركه بصورة منتظمة في حلقات بحثه الجيولوجية، وكان تلميذ الجغرافي الشهير والرحالة الخبير بالصين فيرديناند فون ريشتهوفن وعالما شابا، حين درس جنوب المكسيك طوال أشهر عديدة من عام 1888، اجتاز خلالها القسم الغربي غير المطروق من سلسلة جبال

6. فيرنر شفان: إسهام في تاريخ الجيولوجيا في جامعة إيرلنجن بين 1743 و1993. إيرلنجن 1994.

الكورديليره الساحلية في مسيرات سريعة قادته عبر جبال وعرة جعلتها عصابات اللصوص غير آمنة. بتعيينه منذ عام 1895 أستاذا في إيرلنجن، كرس لينك نفسه في الحقبة التالية لأولوية بناء مقتنيات الجامعة المعدنية. ومع أن رحلات بحثية تالية قادته حتى القوقاز، فإن ما نشره كان قليلا. بسبب حب زملائه والدوائر الطلابية، مثل الرجل نموذج الأستاذ الطيب المعشر، الذي يمكن مصادفته غالبا في جامعات الأقاليم الألمانية، والذي ينفذ التزاماته التعليمية ومهامه في الإدارة الذاتية الأكاديمية بجدية، ويعتني بمقتنيات المعهد، ويجد مع ذلك الوقت لرعاية اهتمامته الخاصة، فـ«يذهب مطلع كل عام تقريبا إلى حفلات صراع الديوك»[7].

لم تكن الدراسات الجيولوجية كافية وحدها لإرضاء نيدرماير، الذي تعلم الإنجليزية والروسية والعربية والتركية، لأنه كان يشعر بالانجذاب إلى البلدان البعيدة وخاصة منها بلدان الشرق، وهو أمر كان مألوفا آنذاك في بافاريا تلك الأعوام، حيث كان يزداد الاهتمام بالعالم الإسلامي[8]/ الشرقي، وأمر الملك لودفيج الثاني بإقامة مخزن شرقي في ليندرهوف، أمام الخلفية الشاعرية لجبال الألب، بينما لعب متحف المهن البافاري في نورنبرج دورا مركزيا في الدراسات الشرقية ضمن المجال الناطق باللغة الالمانية، وأتاحت مجلته الموسومة «الفن والمهن» الفرصة لمؤرخي الفن البارزين لتقديم أبحاث راهنة حول الفن الإسلامي وصناعة الخزف العثماني والفارسي. ويوجد بين الأشياء التي تذكر اليوم أيضا بنيدرماير مدافئ حجرية جلبها من افغانستان وعرضت في المتحف الإسلامي ببرلين.

لا شك في أن نورنبرج وإيرلنجن مثلتا ريفا فرانكيا على قدر عظيم من

7. رثاء فرايبيرج للينك (17/ 5/ 1863 إلى 12/ 2/ 1938) في: تقارير عن جلسات الجمعية الفيزيائية الطبية في إيرلنجن، الجزء 70 (1938)، الصفحة 25 ـ 35 .

8. تابع آنيته هاجيدورن: في البحث عن أسلوب جديد. تأثير الفن العثماني على صناعة الخزف الأوروبية في القرن التاسع عشر. برلين 1998.

البدائية، إذا ما تأملناهما بعيني ميونيخ وبرلين. لكنهما قدمتا فرصة لأوسكار نيدرماير مكنته من تجاوز قيود وظيفته الفكرية ودائرة نظر بيئته ومحيطه الضيقة. بل ان إيرلنجن كانت تنتمي في أحد الاختصاصات إلى مواقع البحث والتأهيل الرائدة في ألمانيا، ذلك أنه منذ تعلم فريدريش ريكيرت، الشاعر ومترجم شعر الشرق والشرق الأقصى المتمكن، اللغات الشرقية فيها بين عامي 1826 و1841، أولت جامعة فريدريش ألكسندر الدراسات الاستشراقية اهتماما خاصا، وكان فيها عالم بارز هو أستاذ علم اللغات السامية جورج ياكوب، الذي درّس أوسكار الفارسية الجديدة منذ عام 1910.

لم يحصر ياكوب عمله كمترجم شعر تركي وفارسي وعربي في معالجة تطورات الشرق الاجتماعية والتاريخية الثقافية[9]، بل اعتبر أن بين مهامه تأهيل خبراء في الثقافات الأجنبية متعددي المعارف من ذوي الأفكار الخاصة. هذا الهدف التربوي تناقض مع التقيد الحصري بالدراسات الفيلولوجية والتخصص الضيق، لأن ياكوب كان يعتبر الثقافة الإسلامية عضوية تامة ليس باستطاعة فيلولوجي واحدي التكوين استيعابها. وكانت المعرفة الموضوعية بالعرب والاتراك والفرس شرطا ضروريا بالنسبة إليه، لكنها لا يجوز أن تكون هدف بحث شرقي ينصب على الحاضر.

وضع جورج ياكوب كعالم دراسة اللغات الشرقية في الإطار الواسع للعلاقات السياسية والتاريخية الثقافية بين الشرق والغرب. وكان اهتمامه ينصرف إلى الجغرافيين العرب قدر انصرافه إلى أساطير الشرق. وقد اهتم بحياة البدو العربية القديمة، وبدراسات شكسبير ومسائل التاريخ السياسي والصلات التجارية. أية سلع حصل عليها العرب في العصر الوسيط من بلدان الشمال والبلطيق؟. كيف وصف المبعوثون العرب حياة بلاطات أمراء الجرمان

9. تابع جورج ياكوب: تأثير الشرق على الغرب، أوسنابروك 1972 (طبعة جديدة لإصدار عام 1924).

في القرن التاسع؟. ماذا كان تطور المجر في العصر التركي؟. كان ياكوب مبهورا بخيال الظل الشرقي، حتى أن كورت بروفر، الذي غدا فيما بعد خبيرا بارزا في وزارة الخارجية ومديرا للقسم المركزي في برلين الثلاثينات، نال شهادة الدكتوراه عام 1906 حول موضوع خيال الظل المصري[10].

شملت اهتمامات الأستاذ المجتهد موضوعات تاريخية / عسكرية أيضا[11]. وقد كان أمرا مشوقا بالتأكيد أن يعرف الملازم الثاني نيدرماير أن كلمة «أولان» الألمانية، التي تصف الخيال الذي يقوم بالاستطلاع وراء خطوط العدو، تركية المنشأ، وأن الـ«أوجلان» كانوا أول الأمر بوسنيين ضمهم الساكسيون إلى جيشهم، لكنهم فروا عام 1745 جماعات ووحدانا إلى فريدريك الكبير، وكونوا نواة وحدات الأولان البروسية الجديدة. أما الأعلام الصغيرة في رماح الاولان فقد ذكرت حتى خلال سنوات الحرب العالمية الأولى بالسباهية، فرسان الإقطاع التركي.

انصرف اهتمام جورج ياكوب العملي في السنوات التي كان أوسكار نيدرماير خلالها من تلامذته، إلى موضوع غير عادي، هو أخوية البكتاشيين الشرقية السرية[12]، التي أسسها الحاج بكتاش، أحد الصوفيين الإسلاميين، وكانت تعاليمها شبيهة بعقيدة الشيعة في بلاد فارس، تمجد مثلها علي، ابن عم محمد، والأئمة الإثني عشر. لكنها تدعو إلى التسامح الديني، بخلاف الشيعة، وتربط في معتقداتها بين عناصر من الإسلام الصوفي وتقاليد الأديان الشعبية السابقة للإسلام، وممارسات مسيحية كالاعتراف والغفران وعبادة القديسين.

10. تابع دونالد مالكال: كورت بروفر، ديبلوماسي ألماني من القيصر إلى هتلر. مطبوعات جامعة كنت 1987، ص 194.

11. جورج ياكوب: تأثير الشرق على الغرب، ص 89.

12. إسهامات في معرفة أخوية دراويش البكتاشيين، برلين 1908، وكذلك «البكتاشيون في علاقاتهم مع ظواهر مشابهة، ميونيخ 1909.

ارتبط البكتاشيون خلال مئات السنين ارتباطا وثيقا بالنخبة العسكرية في الرايش العثماني. وكان مؤسس الأخوية يعتبر في الوقت نفسه مؤسسا للإنكشارية، وحدات النخبة العثمانية التي تشكلت أول الأمر من أسرى حرب مسيحيين وقعوا بين أيدي الأتراك، الذين لم يقتلونهم جميعهم، بل ضموا الفتيان منهم، الذين اعتنقوا العقيدة وخضعوا لتأثيرها، إلى صفوف المقاتلين من أجلها. بذلك تشكلت تدريجيا جماعة فريدة من أتباع الدين الجدد، اكتملت صفوفها بانضمام شعب البلقان المسيحي القسري إليها. لم تبلغ الأخوية البكتاشية أهميتها التاريخية العالمية داخل الإطار السياسي للإمبراطورية العثمانية إلا بفضل ارتباطها بالإنكشارية، التي كان رجالها هم الواعظون الميدانيون لحملات الفتوحات العالمية الكبرى، مثلما كانوا أصل كثير من الاضطرابات، التي أضعفت فيما بعد قوة الإمبراطورية العثمانية. كان جورج ياكوب مهتما بهؤلاء الجنود المتعطشين للسلطة، عندما صار أوسكار نيدرماير تلميذه عام 1909 في إيرلنجن. وقد أتقن الملازم الشاب بعد فصل دراسي واحد «بحماسة ولياقة» قواعد الفارسية الجديدة، وكان بوسعه قراءة نصوصها السهلة، وأظهر في دراساته «موهبة واجتهادا»، كما قال جورج ياكوب[13].

والحقيقة أن كثافة وحجم اهتمامات نيدرماير العلمية خلال سنوات إيرلنجن كانا محيرين بكل معنى الكلمة. فقد اكتسب في مرصد بامبرج القدرة على تحديد المواقع بواسطة النجوم، وقادته الرحلات إلى منطقة البحر المتوسط، والجولات الجسورة إلى أعالي جبال الألب. إلى هذا، مارس الضابط الشاب الفارع القامة الرياضة بحمية، وكان خلال حياته كلها سباحا ممتازا، ومتسلق جبال، وفارسا ناجحا، ولاعب كرة مضرب، سعى إلى الأخطار في جولات جبلية مفعمة بالمغامرة، وسمح في سنوات تالية برسمه

13. حسب نص وثيقة كتبها الأستاذ الدكتور يوم 1 أيار عام 1911.

كبافاري مليء بالقوة الطبيعية، فلماذا كان دائب البحث عن التحديات الروحية والجسدية الصعبة؟.

## وعي البيئة والمحيط

تعكس طفولة ويفاعة أوسكار نيدرماير تجارب وانماط سلوك الاجيال التي ولدت في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، وقدمت النماذج التي اقتدى بها المجتمع البرجوازي، والبنى التراتبية للبيروقراطية والعسكر، والمؤسسات الراسخة كالأسرة والجامعة، التي كانت إطارا متلاحما للسنوات التي طبعت نيدرماير بطابعها. ومع ذلك، فإنه لما يثير العجب أن البيئة والمجتمع لم يحولا بينه وبين امتلاك نظرة نقدية إلى حقيقة العصر. وتسمح مخطوطات محاضراته البرلينية من الثلاثينات بالتعرف على رؤيته الصاحية للبيئة والموجهة نحو الحقائق الاجتماعية والسياسية، دون أن يشوشها عصر شبابه الخاص.

حمل نيدرماير تقديرا خاصا لأعمال الضابط والسوسيولوجي النمساوي جوستاف راتسنهوفر، الذي[14] اعتبره قدوة علمية ووظيفية له. ولد راتسنهوفر عام 1842 في فيينا، وتعلم أول الأمر صناعة الساعات اليدوية، قبل أن ينضم وهو في سن السابعة عشرة إلى جيش هابسبورج، حيث برز عام 1866 خلال الحملة الخاسرة ضد بروسيا، وربط بين انتسابه إلى المدرسة الحربية وبين سيرة عسكرية ناجحة وعمل علمي نشيط. ظهر كتاب راتسنهوفر المهم الأول عام 1881، وهو كتاب كثيرا ما استشهد نيدرماير به لاحقا: «الدفاع عن

14. أثرت المؤلفات التالية بقوة على نيدرماير: جوستاف راتسنهوفر: الدفاع عن الدولة، بحث علمي في فرص الدفاع العام، شتوتجارت 1881 (طبعة جديدة، أوسنابروك 1970). وأطروحة دكتوراه هي: جوهر وهدف السياسة كجزء من السوسيولوجيا وأساس لعلوم الدولة. لايبزيج 1893. أطروحة دكتوراه: النظرية الإيجابية حول العلاقات الإنسانية المتبادلة، لايبزيج 1907.

الدولة، بحث علمي في فرص الدفاع العام»، ثم ظهر كتاب بثلاثة أجزاء عام 1893 هو «جوهر هدف السياسة كجزء من السوسيولوجيا وأساس لعلوم الدولة». في هذا المؤلف الضخم، يشرح راتسنهوفر التناقض بين الصديق والعدو باعتباره معيارا حاسما في تكوين المجموعات الاجتماعية والسيرورات السياسية، ويستبق «مفهوم السياسي» لدى كارل شميدت، الذي ليس من قبيل المصادفة قطعا أنه أقام لاحقا صلة علمية وسياسية نشيطة مع نيدرماير، بينما كان أكثر أساتذة القانون الدولي إثارة للخلاف في القرن العشرين.

أسند راتسنهوفر، منظِّر المجتمع والاستراتيجية النمساوي، عمله العلمي على تجربته الخاصة وعلى الملاحظة المتأنية لدولة هابسبورج الكثيرة الشعوب. ورأى في السياسة، على خلفية تكسر الدولة السياسي والاجتماعي والفكري، الطموح البشري لتكوين مجموعات منظمة قادرة على فرض مصالح، تدافع عنها في إطار القانون والمجتمع البرجوازي، لكنها على استعداد تام في نهاية الأمر لفرض أهدافها بالعنف. وتبدو هذه المنازعات، حسب نوع وكثافة مصالح المجموعات المشاركة، كنضالات اقتصادية من أجل توزيع مختلف للثروة، أو كصراعات اتنية، أو كحروب دينية، أو كمعارك عصابات مجرمين منظمة، أو كحرب أهلية في الداخل أو حروب بين الدول في الخارج.

ارتبطت الأهمية السياسية للنزاع وارتبط الاستعداد لاستعمال العنف في نظر راتسنهوفر بكثافة علاقة الصديق / العدو. وقد انتخب النمساوي عضوا في المعهد الدولي للسوسيولوجيا في باريس في عام 1895، اعترافا بانجازاته العلمية، وفي عام 1898 سمي رئيسا للمحطة العسكرية العليا في فيينا، ووجدت نظريته حول مجموعات المصالح، المنشورة في العام ذاته في لايبزيج بعنوان «المعرفة السوسيولوجية: فلسفة إيجابية للحياة الاجتماعية» صدى لها قبل كل شيء في نظرية المجتمع التجريبية التوجه في الولايات المتحدة الأميركية. فارق راتسنهوفر الحياة يوم 8 تشرين الأول عام 1904 في

المحيط الأطلسي أثناء عودته من رحلة بحث وإلقاء محاضرات قادته عبر الولايات المتحدة.

لخص نيدرماير في زمن لاحق أفكار راتسنهوفر، ووصف خلال محاضراته في جامعة برلين كيف تتصاعد ديناميكية المجموعات الاجتماعية، وتنطلق من إدراك المصالح المشروعة نحو صراع وجود تستخدم فيه جميع الوسائل. وأوضح نيدرماير لتلامذته وقرائه: «أن السياسة هي بالنسبة إلى راتسنهوفر شكل من أشكال صراع الوجود البشري، هدفه المطلق النجاح، ومضمونه ضمان البقاء والتطور وتوسيع نفوذ وملكية شخصية سياسية، وأنه رأى في السياسة مقياسا لا يعرف الرحمة للقوى، يوجهه قانون العداء المطلق بين جميع الأشخاص»[15].

أثر راتسنهوفر في نظرة نيدرماير النقدية إلى حقبة ما قبل عام 1914، التي حللت بدم بارد كيف تنحل الروابط التقليدية، وأكدت أن الديناميكية الاقتصادية للرايش الألماني زادت التوترات الاجتماعية، وأن الشريحة القائدة لم تدرك، أو أهملت، نزاعات المجموعات الاجتماعية والأحزاب المختلفة، مع أنها كانت تزداد حدة وتفاقما، وان التفاؤل غير المكترث والرضا عن الذات والابتعاد عن مسائل العصر الملحة ميزت حياة ألمانيا السياسية في حقبة ازدهار جلي، عرفت انتشارا واسعا لمذهب اللذة وعمت أثناءها بدائية ساذجة، وتأهل خلالها الجندي والسياسي، العسكري والديبلوماسي حسب نموذج وظيفي اتسم بضيق الأفق، بينما كانت مجموعات الموظفين المسؤولين عن أمن الرايش وسياسته الخارجية بعيدة عن السياسة، بفعل تجربتها الوظيفية الضيقة: «لقد كانا كلاهما مسيَّسا بقدر ما كان خادما للدولة وموظفا فيها وملكا، بينما كانت كتلة الشعب تمزق نفسها في صراعات حزبية».

15. أوسكار ريتر فون نيدرماير: سياسة الدفاع، لايبزيج 1939، ص 4 وما يليها.

عندما كان يلقي نظرة راجعة، كان نيدرماير يرى في الاستقرار الاجتماعي قبل 1914 سرابا في سراب، فالتناقضات المصلحية العميقة للبرجوازية الليبرالية والبروليتاريا الاشتراكية ولملاك الأرض المحافظين هي التي كانت تحرك السياسة الداخلية، وتؤثر بصورة مباشرة على السياسة الخارجية. وكان يرى ارتباطا مباشرا بين التطور الاجتماعي في الداخل وخيارات الرايش القيصري السياسية / الاستراتيجية في الخارج، ويعتقد أن النزاع بين مجموعات المصالح داخل النخب الزراعية والصناعية كان يتفق مع التناقض بين الجيش والبحرية، وأن العراك من أجل أولوية تسليح الجيش أو بناء الأسطول الحربي لم يكن نقاشا حول الاستراتيجية الصحيحة، بل صراعا بين مشاريع تسليح تمولها الدولة، يدور حول السلطة الاجتماعية والمصالح الاقتصادية.

اعتقد نيدرماير كذلك أن أشد خطوط الجبهة الاجتماعية حدة كان واضحا في بروسيا الفيلهلمينية وبافاريا ولي العهد، وأنه كان ثمة وراء الواجهات البراقة للمدن التي تحتضن مقرات الحاكمين، وبعيدا عن المباني الجامعية الشبيهة بالقصور وعن أحياء البرجوازية الكبرى الفخمة، هوة اجتماعية تزداد انتشارا واتساعا بين البرجوازية المالكة الناجحة اقتصاديا، وشرائح المجتمع الوسطى والدنيا، وأن البرجوازية الليبرالية تسيطر على الحياة الاقتصادية والاجتماعية وعلى الصحافة الثقافة، في حين تؤيد الدوائر المحافظة من البرجوازية القوية ماليا الملكية والجيش. بينما يقف على الجانب الآخر من الجبهة الاجتماعية العمال الذين يزداد عددهم وتنظيمهم بسرعة، بالمقارنة مع غيرهم، وقد تبنوا المطالب الجذرية للثورة البرجوازية عام 1848 / 1849، وكان تنظيمهم المسمى الحزب الديموقراطي الاجتماعي معاديا مثلهم لبروسيا وبسمارك والعسكر. تفهم نيدرماير مصلحة العمال، وأكد في مخطوطات محاضراته خلال الثلاثينات بصراحة: «أن مصلحة العمال الطبقية نشأت من بؤسهم»، وقال إنهم يحملون عبء التقلبات

الاقتصادية، وإن الأزمات والتوترات الدولية تمسهم بصورة مباشرة، وعليهم عند نشوب الحرب الخضوع للتعبئة العامة وترك أسرهم، والذهاب من قاعات الفبارك والمناجم إلى الثكنات وميادين المعارك.

لم يكن الضابط الشاب أوسكار مثقفا ليبراليا أو ديموقراطيا اجتماعيا. ولم يعتقد أن مركز ثقل الفعل السياسي تكمن في السياسة الداخلية أو الاجتماعية، رغم إيمانه أن الأولوية للسياسة الداخلية في دولة أحزاب برلمانية ذات تحالفات متغيرة، في حين تحتل قضايا السياسة الخارجية مرتبة أعلى في الدول والمجتمعات المنظمة بطريقة تراتبية. وقال إن هذا يفسر لماذا كان الرايش الألماني والقوى العظمى الأوروبية الأخرى بتراتباتها الاجتماعية والدولوية المتبلورة يعطيان قبل عام 1914 الأولوية للسياسة الخارجية. وللعلم، فإن اهتمام أوسكار نيدرماير تركز على جغرافية وسياسة القوى العظمى.

## الجغرافية والسياسة

تجول الكساندر هومبولدت عام 1829، وهو في الستين من العمر، طوال تسعة أشهر في آسيا الوسطى، حيث اجتاز ألفين وخمسمائة ميل ودرس سلاسل جبلية ومناطق سهلية، ووضع حجر الأساس الأبحاث المناخ الحديثة. وقد نشر نتائج بعثته في مؤلف من ثلاثة أجزاء عنوانه «آسيا الوسطى، أبحاث حول السلاسل الجبلية وعلم المناخ المقارن»، جعل آسيا الوسطى نقطة ثقل البحث الجغرافي الالماني. بدوره، مثّل كتاب كارل ريتر الضخم «الجغرافيا في علاقتها مع الطبيعة وتاريخ الإنسان أو الجغرافيا العامة المقارنة»، ذروة المعرفة العلمية في جغرافيا القرن التاسع عشر، وكان مكرسا لمناطق مترامية الأطراف من آسيا. من جانبه، كان فرديناند فون ريشتهوفن، درّاس الصين، المعلم الأكاديمي لمرشد نيدرماير في إيرلنجن الأستاذ هانس لينك، والمشرف اللاحق على أطروحة الدكتوراه التي أعدها في ميونيخ:

ايريش فون دريجالسكي. تطرقت رسالة دكتوراه نيدرماير عام 1919 حول الأحواض الداخلية لهضبة آسيا الوسطى إلى مسائل تغير المناخ في إيران بالروحية التي اختطها هومبولدت، واستشهد أوسكار بعنوان وموضوع الجزء الرابع من «الجغرافيا العامة المقارنة» لكارل ريتر، عندما كتب عام 1925 مقالة عن «منطقة الانتقال الأرضية الأوروبية/الآسيوية الدنيا» ضمها مؤلف تكريمي مكرس للمشرف على رسالته للدكتوراه[16].

كان نيدرماير مخلصا للتقليد العظيم. من جانبها وجهت الجغرافيا العسكرية الالمانية اهتمامها نحو الشرق، وخاصة منه آسيا الصغرى. وقام هيلموت فون مولتكه، قدوة الأركان العامة الألمانية، بدراسات جغرافية وخرائطية حين كان مستشارا عسكريا في الأمبراطورية العثمانية. وتعد الرسائل التي بعث بها من تركيا من أهم شهادات ثقافة الرسائل الألمانية في زمن ما قبل آذار. انتسب مولتكه، بصفته حامل وسام الاستحقاق، إلى فصيلي حملته كليهما، فكان العلماء والفنانون والكتاب يرون فيه واحدا منهم، مثلما كان ضباط الأركان العامة الألمانية، الذي دأبوا على دراسة الجغرافيا والطبوغرافيا تحت قيادته، يعتبرونه واحدا منهم.

تعد التجربة العلمية، التي تعرف كيف تشرح الارتباط بين المكان والسياسة، مكسبا للقوة السياسية والعسكرية. لم يقتصر فهم هذا الأمر على الأركان العامة في برلين، فقد صدر عام 1890 في أميركا، على الجانب الآخر من الأطلسي، كتاب مقدم إلى الأمم التي تمخر عباب البحار في منافسة تمتد عبر العالم. ألقى الضابط الأميركي والمؤرخ ألفريد ثاير ماهان في كتاب «تأثير القوة البحرية عبر التاريخ» نظرة عامة على تاريخ واستراتيجية الحرب البحرية المعاصرة، ووصف في فصل تمهيدي كتبه بطريقة رائعة

16. رسالة دكتوراه: «الأسس الجيوبوليتيكية لمنطقة الانتقال الأرضي الأوروبية / الآسيوية الدنيا. ميونيخ / برلين 1925.

المحرضات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية التي فتحت الطريق أمام تحول القوى البحرية إلى قوى عالمية[17].

دفعت الرغبة في المغامرة، مثلما دفع الطمع في الغنائم، الإنجليز والأميركان إلى البحر، حيث أمتعتهم التجارة وأرضتهم الأرباح المادية. لا يدين التجار والمغامرون بكسب طريقهم المربح نحو البحر المفتوح إلى ذكاء سادتهم، بل إلى مزايا المرافئ الطبيعية. ولم يقرر أي ملك ولم تحدد أية حكومة أو دولة مصير الأمم المسافرة في البحر، الذي تعين بالوضع الجغرافي والرياح الملائمة (ظروف طبيعية). لم تقتصر قراءة كتاب ماهان على قيادة الولايات المتحدة الأميركية السياسية والعسكرية، بل قرأه قيصر المانيا، الذي تحمس له وأمر بضمه إلى مكتبات سفن بحرية الرايش.

قدم تفكير ماهان دفعة قوية للتسليح البحري وللنقاش الاستراتيجي في الرايش الألماني. وجعل قضية المستلزمات الضرورية لقوة ألمانيا العالمية المسألة الرئيسة في النقاش العام، حتى أن فريدريش راتسل، الذي لم يكن بالأصل جغرافياً بل عالم بيولوجيا، التقط افكار ماهان، ووضع مؤلفا من جزئين عنوانه «الجغرافيا السياسية: أو جغرافية الدولة، والمواصلات، والحرب»، جعل منه المؤسس الحقيقي للجغرافيا السياسية في ألمانيا، الذي صاغ عام 1900 بمنهجية تزعم العلمية «قانون النمو المكاني للدولة»، في دراسته التي عنوانها: «البحر كمصدر عظمة للشعوب». كان البيولوجي راتسيل يرى في الهيئات السياسية العامة المنظمة كائنات حية، ويؤمن أن الدول والشعوب تخضع لتبدلات تكوينية تتبع قوانين طبيعية[18].

يثير سلوك نيدرماير تجاه أفكار راتسل الدهشة، ذلك أنه رأى في كتاباته المتأثرة بماهان «سوء استخدام مقلق للعلم له أغراض دعائية»[19]. أما كتاب

17. ألفريد ماهان: تأثير القوة البحرية على التاريخ. برلين 1896.
18. فريدريش راتسل: «قوانين النمو المكاني للدول». الجزء 42 (1896)، ص 97 ـ 107.
19. سياسة الدفاع، ص 172 وما يليها.

«البحر كمصدر لعظمة الشعوب» فلم يكن في نظره غير منتج يومي للدعاية البحرية، التي كان يروج لها الأميرال تيربيتس، ونجحت قيادة البحرية بفضلها في بناء وتمويل أسطول أعالي البحار القيصري خلال أعوام قليلة، على حساب الجيش. لم يكن هناك في تقدير نيدرماير أية ضرورة سياسية أو استراتيجية لتسليح بحرية الرايش الالماني، أما الحماسة الشعبية للبحرية فلم تكن غير انعكاس «وحسب للشروط السياسية الداخلية والاجتماعية» للرايش القيصري. ألم تؤيد أوساط واسعة من البرجوازية بناء الأسطول لأنها رأت في سياسة خارجية تعد بالنجاح أداة ضد خطر الانقلاب البروليتاري؟.

تزايد بصورة مضطردة في الثلاثينات تنصل نيدرماير من عمل راتسل، الذي اعتبره سلفا هتلر الفكري، وانتقد قبل كل شيء سعيه إلى صياغة قوانين طبيعية عامة وملزمة للجغرافيا السياسية، بينما كان يؤكد هو «القيمة النسبية» للمواقع الجغرافية في تبعيتها للتكوينات السياسية الراهنة. لكنه يمكن أيضا العثور على تحليلات متأنية لدى فريدريش راتسل، تجمع الجغرافيا إلى السياسة ضمن نظرة عامة مقنعة، وتعتبر من العناصر التي حفزت عمل نيدرماير العلمي. ينطبق هذا أول ما ينطبق على وصفه لبحر قزوين، الذي كان مقدرا له أن يلعب دورا مهما في تأملات نيدرماير الاستراتيجية والعملياتية.

لم يحاول ماهان وراتسل وحدهما القيام بدراسات متفرقة ضمن نظرية جيوسياسية كبرى، فقد أكد السير هالفورد ماكندر، أكثر جغرافيي الإنجليز أهمية، في عام 1904، عام وفاة راتسل، أنه وجد الجغرافيا «مفصل ومحور تاريخ العالم»، ورفض، بخلاف ماهان وراتسل، أن يرى في البحر أساس السيطرة المقبلة على العالم، واعتقد أن هذه ترتبط بالسيطرة على وسط آسيا، فالمنطقة النواة للكتلة الأرضية الأوراسية تشكل بالنسبة إلى ماكيندر، الذي كان يدرب الأجيال القيادية اللاحقة على الديبلوماسية والإدارة الاستعمارية، المركز الجغرافي للسياسة الدولية. عرض ماكندر أفكاره هذه أمام الجمعية

الجغرافية الملكية قبل وقت قصير من انفجار الحرب الروسية اليابانية، ثم نشرها في مقالة نوقشت على امتداد العالم.

كان تلميذ الثانوية العامة أوسكار نيدرماير في التاسعة عشرة آنذاك، وقد حول أفكار مكيندر إلى «فكرة ثابتة» لازمته مدى الحياة، وأقنعته أن هناك طريقا واحدة تجعل ألمانيا قوة عالمية مسيطرة تستطيع ضرب السيطرة الأنجلوساكسونية الكونية، حتى خال عام 1940 أن هدفه صار في متناول يده، فلخصه بقوله: «سندرك أن علينا التفكير والتخطيط والعمل في مجالات وأبعاد عالمية إذا كنا نريد مكافحة الامبراطورية البريطانية بفاعلية، وأن علينا مواجهة نظام السيطرة والاتصال المحيطي بنظام قاري»، قبل أن ينصح، أخيرا، بالتعلم من العدو: «إن من دلنا على هذا الدرب الوحيد والمؤكد الفاعلية هو إنجليزي اسمه ماكيندر».

أظهرت محاضرة ماكيندر الانفتاح الذهني والمرونة السياسية المثيرين للإعجاب، اللذين تتمتع بهما النخبة القيادية البريطانية، وسعت إلى وقف التآكل البطيء في مواقع القوة الخاصة. وكانت النخبة البريطانية وامبرياليتها الليبرالية ممثلة بصورة بارزة في الجمعية الجغرافية الملكية، التي انتمى إليها رحالة باحثون، وإداريون استعماريون، وعلماء، في حين كانت بعثتها إلى التيبيت عام 1904 بقيادة فرانسيس يونجهاسبند العملية الأخيرة في استراتيجية تقدم بريطانيا الكونية. وبما أن سادة الامبراطورية تأقلموا الآن بحرص مع وضعهم المتفوق، وانتهجوا سياسة دفاعية في العالم بأسره، فإن توسعهم الخاص لم يعد في القلب من طموحهم، وانصب اهتماهم الرئيس على مراقبة أعدائهم المحتملين. وصف ماكيندر مهمة سامعيه المقبلة بالقول: «إن اهتمامي ينصرف إلى الرقابة الفيزيائية العامة اكثر مما ينصرف إلى مسببات التاريخ العالمي»[20]. وقد وجدت الرغبة في ضبط الأعداء المحتملين

20. هالفورد ماكيندر: البعد الجغرافي للتاريخ. في الصحيفة الجغرافية، الجزء 23 (1904)،

للإمبراطورية البريطانية العالمية تأييدا واسعا ليس فقط لدى المحافظين، بل كذلك عند الليبراليين والاشتراكيين. والحق، أنه لا ديبلوماسيو وعسكر وايتهول، ولا المثقفون والبوهيميون التقدميون في بلومسبوري كانوا يسمحون أن تمس قوى أخرى باهداف الإمبراطورية عالمية الأبعاد.

ركز ماكيندر في تحليل حول الوضع الدولي أجراه عام 1904 على أشد منافسي بريطانيا خطورة، أعني روسيا والرايش الألماني، قبل أن تفضح الهزيمة أمام اليابان ويكشف فشل الثورة تداعي امبراطورية القيصر الداخلي، وتتحول القوة البرية الأوراسية الأكبر، التي اعتبرت تهديدا عام 1904 إلى شريك تعاقدي عام 1907 بوسع لندن الاتفاق معه من موقع قوة على تحديد مجالات المصالح في آسيا. منذ ذلك التاريخ، لم تعد روسيا منافسا أصليا على السيطرة في أوراسيا والعالم، واقتصر الأمر على الرايش الالماني.

آمن جيوسياسي أميركي بهذا التقويم. ولد همر ليا عام 1876 في سان فرانسيسكو لرجل أعمال غني، وشعر ككثيرين من المنتسبين إلى الشريحة العليا الأميركية أنه الوريث الطبيعي للسيطرة البريطانية على العالم. وقد تفرغ بعد رفضه في وست بوينت بسبب مشاكل صحية لدراسة القضايا الاستراتجية والجغرافية والسياسية على نفسه، قبل أن يجعل الإصلاحي الصيني صن يات صن الجيوسياسي الأميركي مستشاره العسكري، ويمنحه رتبة جنرال،

---

ص 421 ـ 437. كتب نيدرماير من أجل محاضرة حول موضوع «جغرافية الدفاع في مثال الاتحاد السوفياتي»، وضعها على الأرجح في النصف الثاني من عام 1940 بعض الملاحظات قال فيها حول ماكيندر: «إذا ما انتهت الحرب الراهنة، لأن أعداءنا سيقتنعون كما نأمل بعد حين، باستحالة هزيمة المانيا عسكريا وفصلها عن مصادرها من المواد الأولية والغذائية، فإننا سنغتني بالتأكيد بتجربة مكانية استراتيجية كبيرة، وسنعرف أنه لا بد من التفكير والتخطيط والعمل في إطار الأبعاد والأمكنة العالمية، إذا ما أردنا مكافحة الامبراطورية البريطانية بفاعلية، ولا مفر من مواجهة نظام السيطرة والاتصالات المحيطي بنظام قاري. إن من دلنا على هذا الدرب الوحيد والمؤكد الفاعلية إنجليزي إسمه ماكيندر».

ويضمن له فاعلية عسكرية وسياسية واهتماما واعترافا دوليين.

دقت عام 1912 «ساعة الأنجلوساكسون» بالنسبة إلى هامر ليا، الذي اعتقد أن المنافسة البريطانية العالمية مع الرايش الألماني، واحتمال التعاون الألماني/ الروسي، وقوة اليابان ستجبر الإمبراطورية البريطانية على التعاون مع الولايات المتحدة الأميركية، إن هي أرادت البقاء. حذر ليا من حلف ألماني/ ياباني/ روسي، وتنبأ بنشوب حرب بين اليابان وأميركا، وحدد بيرل هاربور كهدف أول للهجوم الياباني، كما ذكر عام 1912 مدينتين قال إن لهما أهمية حاسمة بالنسبة إلى السيطرة على العالم، واضاف: «هناك أمكنة تشبه بوابات تأتي الأمم عبرها وتذهب. إنها أحيانا كأقواس النصر، وأحيانا أخرى كباب ضيق، تختفي الأمم كما يختفي الأفراد إلى الأبد إن هما عبراه. إن حيرات هي الباب الأول وكابول الباب الثاني!. وليس في العالم كله مكانان لهما مثل أهميتهما»[21].

## عن ميونيخ

شهدت ميونيخ في الرابع عشر من أيار عام 1910 حدثا مميزا، فقد فتح «معرض أعمال أساتذة الفن المحمدي» أبوابه أمام الزوار في العاصمة البافارية. وكانت المتاحف وهواة جمع الأعمال الفنية من مناطق مختلفة في العالم قد أعارا بعض ما بحوزتهما من أعمال فنية إلى المعرض، الذي وضع تحت رعاية ولي العهد. أما دليل المعرض بأجزائه الثلاثة، الذي طبع منه 430 نسخة، فكان منذ صدوره تحفة مكتبية رائعة.

سار المعرض في طرق جديدة، فعرضت غرف قليلة حسب أشكال هندسية شرقية، وتكيفت تشكيلاته الداخلية مع طبيعة المواد المعروضة، دون الجنوح إلى الرغبة في إحداث تأثير على الزائر، ولم تتسربل بتزيينات شرقية

21. هومر ليا: ساعة الأنجلوساكسون، برن 1946، ص 185.

الإيحاء، وإنما تم طلاء جدرانها جميعها باللون الأبيض. كان صدى المعرض هائلا لدى العلماء والفنانين والجامعيين، لكن الرأي العام بقي بعيدا عنه، ليس فقط لأن الصيف الماطر أبقى الجمهور بعيدا، بل لأن الشكل غير المألوف للعرض ترك أثرا منفرا. وقد كان فريدريش ساره، الجيولوجي الذي أصدر الدليل، على حق في ملاحظته: «إن بعض عري الغرف، وانتفاء المؤثرات اللونية والتكوينات الخيالية، والسعي إلى ترك الأعمال الفنية تؤثر من خلال نوعيتها وحدها، هذا كله ربما كان تم التأكيد عليه ببعض الفظاظة هنا أو هناك[22]». لا شك في أن ميونيخ والفيتلسباخيين كانا يسيران بفضل معرض الفن الإسلامي هذا على طريق إلى الحداثة، حيث كان على أوسكار نيدرماير أن يجد دعما لديهما يعينه على تحقيق خططه الطموحة، لا سيما كان يمكن هنا فقط أن تنفتح أمامه الدروب إلى المواقع السياسية والأكاديمية المفصلية.

اقترن البحث الجغرافي في ميونيخ أشد الارتباط بشخصية إيريش فون دريجالسكي، منذ الفصل الدراسي الشتوي عام 1906 / 1907[23]. هذا الباحث والعالم الذي حظي مكانة عالمية مرموقة، وولد عام 1865 في مدينة كونيجسبيرج من أعمال بروسيا الشرقية، كان كاستاذ نيدرماير هانس لينك من تلامذة فيرديناند فون ريشتهوفن. ربط أساتذة دريجالسكي في جامعات بون وبرلين ولايبزيج رحلات المغامرة في البلدان البعيدة بانضباط البحث العلمي الصارم في معاهد الجامعات المحلية. وبينما كان الجغرافيون يمثلون اختصاصهم في ألمانيا بكرامة أكاديمية، فإنهم كانوا يتحولون خلال بعثاتهم إلى مكتشفين جسورين، رأوا في ألكساندر فون هومبولدت قدوة لهم.

22. فريدريش سار: معرض أعمال أساتذة الفن المحمدي في ميونيخ، ميونيخ 1912، ص 3.

23. تابع ما كتب في رثاء الرجل بقلم فون كرويسبورج «إيريش فون دريجالسكي والجغرافيا الالمانية، في الجغرافية، الجزء الثالث (1949)، ص 65 ـ 68. وكذلك فيلهلم ماينرادوس: إيريش فون دريجالسكي في: أنباء بيترمان الجغرافية، العام الثالث والتسعون ن 1949، ص 177 ـ 180.

لكن الفاصل الزمني والفكري بينهم وبين هومبولدت كان كبيرا. عندما ألقى دريجالسكي يوم 29 تشرين الأول عام 1905 خطبة تذكارية في برلين تكريما لمعلمه فيرديناند فون ريشتهوفن، قرن التكريم بضرورة تحديد موقعه العلمي[24]، وقال إن شخصية هومبولدت الكونية وفكره الحر بقيا نقطة مرجعية بالنسبة إلى الجغرافيا الألمانية، لأنه «طرح مشكلات عن الأرض سمت حتى بلغت النجوم، وحرر بنزعته الكونية قوى متنوعة من قيودها». ثم أكد دريجالسكي في معرض الانتقاد «أن هومبولدت لم يجمع هذه القوى ولم يحافظ عليها، لأن منطقة فكره كانت شديدة الاتساع، وبعض الأسس كانت تنقص عصره». لذلك، «فقد الارضية الملائمة بعد فترة قصيرة». بعد هذا قابل الأستاذ بين عالم هومبولدت الغني بالأفكار وبين شعور فون ريشتهوفن بالواقع وموهبة الملاحظة التي تحلى بها، وجعلاه يترك أثرا أقوى بكثير من هومبولدت، بما أن عمله بدا مكرسا للحاضر والمستقبل، وبما أنه تخلى هو نفسه عن برجوازية هومبولدت الكونية ووضع عمله في خدمة الرايش الألماني.

لعب دريجالسكي دورا بارزا في حياة ميونيخ الاجتماعية والعلمية، من موقعه كرئيس جمعية ميونيخ الجغرافية. إن أعماله التأسيسية في جغرافيا الجبال والمسارات الجليدية، ودوره كمرب في تأهيل أساتذة الجغرافيا البافاريين، ضمنا له قدرا من الاحترام والاعتراف يتخطى حدود البلد، وهو الذي كان حريصا دوما على تفادي تقييد البحث والعلم الجغرافيين مكانيا. لقد تمسك المشرف على أطروحة دكتوراه نيدرماير بتقاليد رحلات البحث الجغرافية وسعى إلى الحصول على تقارير حول مناطق بعيدة.

كتب دريجالسكي في الاول من أيار عام 1911 تقارير خبرة لمشروع

24. دريجالسكي: فريدريش فون ريشتهوفن، خطبة تذكارية ألقيت يوم 29 تشرين الثاني عام 1905 أمام الجمعية الجغرافية في برلين، لايبزيج 1906.

بعثة، أريد لها أن تنطلق من طهران فتخترق شمال فارس قبل أن تبلغ مشهد، على أن تجتاز في النهاية صحراء الكبير وتصل إلى أصفهان، وتضع أخيرا دراسات جغرافية عن المنطقة بين أصفهان وشيراز وشوشتر. اعتقد دريجالسكي أن المشروع واعد علميا، وقال إن الرحلة تعد بتقديم معلومات حول «اهتمامات أخرى»، وختم بأنه كان اقتراحا تقدم به الضابط أوسكار نيدرماير، أبن الخمسة وعشرين ربيعا[25].

انصبت الإشارة الكثيرة المعاني إلى «الاهتمامات الأخرى» على القسم الأول من الخطة، الذي قام على اجتياز جبل البورز ودراسة سلسلته الشرقية، أي المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين، وتضم سلسلة الجبال الإيرانية المرتفعة، التي تنحدر نحو الحدود الروسية، وكانت بالكاد مطروقة ومعروفة قليلة قبل الحرب العالمية الأولى: «إن دراستها من جانبين، كما تقرر في المخطط، لن يعزز فقط معرفة بناء وتركيب هذه الجبال في الموقع الصحيح، بل سيوضح كذلك المشكلات الاقتصادية التي يمكن أن تكتسب شيئا من التأثير في المستقبل، بغض النظر عن الاهتمام الذي يجب أن تبديه من جميع الوجوه دراسة هذه الجبال خرائطيا». وقد زعم نيدرماير بعد عشرين عاما أنه كان كان مكلفا بمهمة عسكرية أيضا، وأن الخرائط كانت وستبقى أساس عمل رئاسات الأركان. وعلى كل حال، يقول دريجالسكي في تقرير الخبرة: «لا تقدم مثل هذه الدراسات نتائج علمية فقط، بل لها أهمية قومية أيضا».

كان على أوسكار نيدرماير التغلب على مصاعب كثيرة قبل الشروع في الرحلة. فقد تسببت وزارة الخارجية في مشكلات تتعلق بجوازات السفر، ورفضت وزارة الداخلية البافارية تقديم الدعم للبعثة، التي صار تمويلها معلقا في الهواء. لكن أوسكار وجد في النهاية محسنة غنية هي الأميرة تيريز فون

25. تقرير خبرة كتبه دريجالسكي يوم 1 أيار عام 1911.

بايرن، التي لم تدعم الاهتمامات الإبداعية والفكرية، بل كانت هي نفسها ناشطة علميا، وأجادت اثنتي عشرة لغة، ونشرت دراسات تتعلق بالنبات والحيوان والطيور والجغرافيا والشعوب. وقد صعدت عام 1913 وهي في سن الثالثة والستين جبل إتنا، فلم يكن عونها بالنسبة إلى نيدرماير مجرد دعم مرحب به، بل ألزمه كذلك بالارتقاء إلى مستوى توقعات عضو مرموق في الأسرة الحاكمة البافارية. كان نيدرماير، القادم من مقطعة بافاريا الدنيا وفرانكن، يقترب الآن من القمم العلمية والاجتماعية للعاصمة البافارية، كما يقترب من أهدافه البعيدة.

## الرحلة الفارسية

انطلق أوسكار نيدرماير إلى الشرق في مطلع أيلول من عام 1912[26]. كانت فيينا المحطة الأولى في رحلة الملازم المجاز، حيث كان يدرّس في معهد تاريخ الفن التابع للجامعة خبير الشؤون البيزنطية المعروف عالميا جوزيف ستريزيكوفسكي، الذي كان تجتذبه بدوره مناطق الشرق القصية، ولفتت دراساته حول قصر مشاطا الصحراوي السوري، الذي أهدى السلطان واجهته إلى القيصر فيلهلم الثاني، أنظاره إلى شمال شرق إيران، حيث تعرف على موقع انطلقت منه تيارات فنية سارت في دروب خاصة مستقلة عن البحر المتوسط.

كان ستريزيكوفسكي قد خطط أول الأمر لرحلة يقوم بها هو نفسه إلى آسيا الوسطى، ثم عرف بنوايا نيدرماير من أستاذه في إيرلنجن جورج

26. تابع الأخبار الجغرافية، ورسائل نيدرماير إلى الرئيس الأول للجمعية الجغرافية في ميونيخ في أنباء الجمعية الجغرافية في ميونيخ، الجزء الثامن (1913) ص 32 ـ 40، و ص 177 ـ 188، وص 305 ـ 310، وكذلك إرنست ديتز: نصب خرسانية، نتائج رحلة بحثية قام بها عام 1912 ـ 1914 معهد التاريخ الفني في جامعة فيينا لدراسة تاريخ الفن الاسلامي في إيران. برلين 1918.

ياكوب، وتلقى في السابع والعشرين من آذار عام 1912 رسالة من الملازم الثاني، تعرض عليه السفر إلى بلاد فارس بتزكية من الأستاذ ياكوب. لم يخش عالم فيينا منافسة علمية محتملة، فنيدرماير يريد معالجة مسائل جيولوجية وجغرافية وإتنوغرافية. هكذا اتفق الرجلان بسرعة، قبل أن يثير طول أمد الرحلة خوف ستريزيكوفسكي، ويوكل إلى مساعده لشؤون الأبحاث القيام بالرحلة الدراسية.

كان إرنست ديتز، رفيق رحلة نيدرماير النمساوي، أكبر منه بسبعة أعوام. وقد أنجز أطروحة دكتوراه حول بيزنطة تحت إشراف جوزيف ستريزيكوفسكي، واعتبر واحدا من جيل العلماء الجديد الواعد، بعد أن قام برحلات علمية قادته إلى روما واسطنبول. عمل ديتز بين عامي 1908 و1911 مساعدا علميا في متاحف برلين الملكية، قبل أن يعود عام 1911 إلى جامعة فيينا. وقد وصف تحف العاج الفنية من أجل دليل معرض ميونيخ، الذي أصدره فريدريش ساره. لا شك إذن في أن أوسكار نيدرماير وجد في ديتز رفيق رحلة على قدر عظيم من القيمة[27].

غادر نيدرماير وديتز فيينا في الثامن من أيلول عام 1912. وكانا قد استكملا تجهيزات رحلتهما من موجودات وزارة الحرب القيصرية والملكية، وسافرا عبر أوكرانيا وروسيا الجنوبية إلى تبليسي، عاصمة جورجيا المعروفة باسم تفليس الروسي، حيث انفتح أمامهما الطريق إلى الشرق. قصد نيدرماير وديتز، المزودين بكتاب توصية من الحاكم الروسي الأمير فورونتسوف، باكو، فأخذا سفينة أوصلتهما إلى ريشت على الشاطئ الجنوبي لبحر قزوين، وركبا من هناك عربة تجرها الأحصنة قطعت في اثنتين وستين ساعة المسافة إلى طهران مرورا بالجبال.

27. ينيس كروجر: إرنست ديتز، مقالة منشورة في الموسوعة الإيرانية، الجزء السابع، كاليفورنيا 1996، ص 401. وكذلك المؤلف التكريمي: إرنست ديتز، إسهامات حول تاريخ الفن في آسيا. اسطنبول 1963.

استلم الأستاذ لينك في إرلنجن في الخامس عشر من تشرين الثاني عام 1912 أول تقرير علمي مصحوب بخرائط وتخطيطات ولقطات مصورة. وتبعت ذلك في الخامس والعشرين من الشهر ذاته خمسة طرود مليئة بلقى جيولوجية، لأن نيدرماير أنجز دراساته الجيولوجية الاولى أثناء اجتيار القوقاز وتفليس وباكو وقزوين.

كانت طهران مكان الإقامة التالي. هنا أيضا، بدأ نيدرماير للتو بالتقاط الصور الجيولوجية والخرائطية، فقد قام برحلات إلى الجبال الواقعة شرق المدينة، وأنجز خارطة عامة بمقياس 1:100000، وحصل في الجبال الواقعة شمالي أمين آباد على مقطع جيولوجي متصل، وعلى أول إثبات أكيد لوجود العصر الثلاثي (الترياسي) في آسيا الوسطى. بينما كان إرنست ديتز يجمع موادا لصالح معهد التاريخ الفني في فيينا، ويرسم مخططا للعاصمة الفارسية. وقد اشتريا أصصا ومصنوعات برونزية من حقل خرائب ري القريب من طهران، مع ان نيدرماير لم ير الشرق بأعين مؤرخ الفن، بل كان اهتمامه منصرفا إلى أشياء أخرى: فقد حصل على تجهيزات درويش متجول بينها عصا كثيرة العقد وذات رأس حديدية مدببة، يستطيع الدرويش استخدامها كهراوة أو كرمح.

التقط نيدرماير الصور ورسم خلال الرحلة. وتعتبر البومات صور الرحلة المفهرسة بعناية والرسوم التي خططها خلال البعثة، وتم العثور عليها في تركة أخيه فريتز، روائع جمالية. أعجب أوسكار بوحشة الريف الإيراني العجيبة، وانسجم مع القفار الصحراوية وسلاسل الجبال المتوحشة. وحين تلقى بعد عقود هدية هي رسم يصور سهوب روسيا الجنوبية، عبر عن شكره وقال: «هذا الرسم يعني لي الكثير، لأنه يجعلنا ندرك اتساع السهب، مع العلم بأن السهب هو الأرض التي تتفق مع طبيعتي»[28].

28. د. كارل فون شوفينجن: ريتر نيدرماير والفرقة التركية. ملاحظات من أجل مكتب أبحاث التاريخ العسكري، 1973، ص 2.

غادر نيدرماير العاصمة الإيرانية في الحادي عشر من تشرين الثاني عام 1912، ليدرس بمفرده خلال شهرين الجبال الواقعة بين طهران وبحر قزوين. وقد خطط لاجتياز الممرات الرئيسة قبل سقوط أول ثلج كثيف، بيد أن الثلج الأول كان قد بدأ يتساقط في ديماوند، وصار بالجو باردا جدا. لذلك سار أول الأمر بمحاذاة سلسلة ألبورز الرئيسة، قبل أن يبدأ اجتياز الجبل. كانت الدروب العمودية تطرح أخطر التحديات على الإنسان والحيوان، فهي مغطاة بالجليد والثلج، والبغال تتزحلق وتسقط عند النهوض وتجرح نفسها. كم مرة وجد نيدرماير نفسه مجبرا على حمل الأثقال لمسافات طويلة نحو المناطق المرتفعة، قبل أن يعود لإحضار حيوانات الحمل وقد أنهكه التعب.

عبر أوسكار أعلى نقطة في الجبل، تلك التي تقع إلى الشمال من مكان يسمى بلفار. كان المناخ الآن أكثر اعتدالا، لأنه بدأ يتأثر ببحر قزوين. ورغم الفصل المتأخر، فإن الثلج لم يكن قد بدأ تساقطه بعد. راقب السكان المحليين الغريب بتوجس وشك، لكنه واصل أعماله الجغرافية والخرائطية والجيولوجية، بينما كان يمر عبر مهاوي صخرية عملاقة وغابات تعج بالخنازير البرية والنمور والفهود والأسود، ويتخبط في مستنقع قبل ساري وينتقل بعد قليل إلى مناطق مغطاة بالثلوج.

أخيرا، سار نيدرماير بصحبة قافلة صغيرة عبر الجبال إلى عشتارآباد، حيث التقى ديتز من جديد في منتصف كانون الثاني من عام 1913، وقوَّم طيلة شهرين كاملين ملاحظاته وأرسل نتائج أبحاثه إلى المانيا، ووثّق بدقة القسم الثاني من رحلته، وأرسل مجددا عينات صخرية ومستحاثات إلى الأستاذ لينك في إرلنجن. ومع أنه دخل بين بلفار وساري أرضا جديدة لم يسبق أن درسها أحد من قبل، فإنه لم يكن راض تمام الرضا عن العائد العلمي لرحلته الاستكشافية، لانه كان يتوقع أن يصل إلى منطقة جبلية مرتفعة فوصل عوضا عن ذلك إلى أرض هضبية تنحدر تدريجيا نحو بحر قزوين، تغطيها غابات كبيرة كثيفة، كان غناها الجيولوجي أقل من توقعاته.

بالمقابل، سعد الباحث بملاحظاته المناخية وقياساته الفضائية، فقد أنجز بين التاسع من تشرين الأول 1912 وشباط من عام 1913، طيلة أربعة أشهر تقريبا، سلسلة شاملة ومتواصلة من السجلات الصباحية والمسائية، أرسلها إلى مرصد بامبرج من أجل تقويمها. وقد لخص ملاحظاته المناخية بدقة في التقرير الذي كتبه عن رحلته: «تكون السماء مغطاة غالبا بالغيوم في الصباح الباكر، ثم تنقشع تماما قرابة الساعة العاشرة. يسيطر على عشتارآباد مناخ محيطي حقيقي، فهو دائم التغير وغالبا ما ينقلب إلى عواصف ليلية، بينما تتلاحق موجات هواء منخفض تلامس سطح الأرض ويسود عند هبوب الرياح القوية ضباب يمر ببطء شديد. تتبادل رياح الشمال والجنوب الهبوب، لذلك يجب التحفظ حيال صحة ما ورد من معلومات حول الرياح».

كانت عشتارآباد، التي أمضى نيدرماير وديتز فيها شهران، تعتبر مقر جمعيات إسلامية سرية، ومكانا للإسلام الصوفي ومركزا للبكتاشيين. وقد ألمح نيدرماير فيما بعد أحيانا إلى أنه انتسب في بلاد فارس إلى أخوية أو جمعية سرية، واعتقد بعض معارفه أن نيدرماير الكاثوليكي اعتنق الإسلام[29]. لكنه يحتمل أن يكون قد أقام صلة مع البهائيين خلال رحلته الفارسية، وربما صار بهائيا، بل إنه يعترف هو نفسه أنه نجح في إقامة علاقة وثيقة مع قادة بهائيين مهمين وشارك في اجتماعاتهم واحتفالاتهم. ولا يشك منافسه اللاحق، فيرنر أوتو فون هنتيج، في أنه كان بهائيا. بالمقابل، يدلي شهود معاصرون عرفوا نيدرماير عن كثب بآراء أكثر تحفظا[30].

مهما يكن من أمر، وجد أتباع هذا المذهب التلفيقي أنصارا في العالم

29. هذا ما يقوله على سبيل المثال سكرتير الدولة المتقاعد هانس ـ هاينريش هيرفارت فون بيتنفيلد، الذي شاهد نيدرماير في موسكو عام 1931، والتقاه من جديد خلال الحرب العالمية الثانية.

30. فيرنر أوتو فون هنتيج: الحاج ميرزا حسين في الحرب العالمية الأولى امام أبواب الهند. في أنباء إيرانية، العام 20، رقم 3، 1990، ص 91 ـ 117، و ص 101.

بأسره بعد ملاحقتهم القاسية، وأعلن مؤسسه السيد علي محمد، الذي سمى نفسه بابا، نظاما روحيا عالمي الطابع، أراد له أن يحل محل القرآن والوحي المسيحي، ارتبطت فيه عناصر غنوصية وليبرالية وتنويرية، وطالب برنامج البهائيين بالعدالة الاجتماعية، وتحسين أوضاع النساء والأطفال القانونية، وقال بعدم جواز المس بالملكية الخاصة، وبالتجارة الحرة، وتخفيض الضرائب وتنفيذ العقوبات بطريقة إنسانية، إلى جانب تصورات آخروية مأخوذة عن الشيعة.

هل اجتذبت أفكار البهائيين الليبرالية والأممية نيدرماير؟. وهل وجد في الوسط الذي يتسم بطابع تآمري رفيع للأخويات الإسلامية والأديان السرية الفارسية، التي كان معلمه ياكوب قد درسها بطريقة علمية، مدخلا إلى منظمة قرنت التدين الشرقي بالأفكار الغربية؟. بالنسبة إلى نيدرماير، كانت هذه الجمعيات مدخلا شخصيا إلى عالم الإيمان الشرقي، الذي تشكل «التقية» جزءا تكوينيا منه، وهي شكل متطور من فن التمويه الشيعي، يعفي المؤمن من الالتزام بالحقيقة ومتطلبات الدين عندما يكون هناك خطر داهم أو وضع إجباري. تتضمن مجموعة نيدرماير في متحف الدولة للجغرافيا في ميونيخ قطع تتيح التعرف عن كثب على الأشكال الخاصة لممارسة الدين الإسلامي، وخاصة بالنسبة إلى الدراويش.

ترك نيدرماير وديتز عشتارآباد في الثلاثين من آذار عام 1913، واتجها أول الأمر إلى الشمال نحو جومبيت كاووس، لاستطلاع خرائب مدينة بشيوشان. ثم مرت قافلتهما الصغيرة في اتجاه جنوبي شرقي عبر شعاب جبلية ضيقة، حيث تقدما ببطء شديد بسبب عاصفة ثلجية فاجأتهما. كان القسم المرتفع من الشعب مغطى بثلج عميق، جعلهم اجتيازه يطلبون عون ثمانين مساعد من السكان المحليين، الذين نجحوا في فتح طريق تقدمت عليه الحيوانات بأحمالها. خلال هذا القسم الصعب من الرحلة، أجرى نيدرماير وديتز دراسات عن أوابد خراسان الهندسية المحاذية لطريقهم. وقد

قيض لديتز أن ينشر بعد بضعة أعوام نتائج هذه الدراسات في عمل تأصيلي عن نصب خراسان العمرانية. أخيرا، وبعد عبور مناطق صحراوية جعلتها عصابات اللصوص غير آمنة، وصلا إلى مشهد، مدينة الشيعة المقدسة، حيث استقرا في القسم الروسي منها.

تقع مشهد بجدرانها الرمادية وقبابها الذهبية وسط واحة خضراء خصيبة، تحيط بها قفار آسيا الوسطى العليا الحجرية ومسافاتها المترامية الأبعاد. وتنبسط في الشمال امبراطورية القيصر تحت سماء صافية، وتضم هنا المدينتين الواحتين القديمتين سامارقند وبخارا، اللتين كان الوصول إليهما صعبا. تحققت في مشهد أمنية كان نيدرماير يحتبسها في صدره منذ وقت طويل. كان مرقد الإمام الثامن رضا تحت إحدى القباب الذهبية، ومع أن الدخول إليه كان ممنوعا بصرامة على غير المسلمين، فقد تنكر في ثياب حاج ودخل مساء أحد أيام الجمعة إلى المكان المقدس، الذي يعبد الشيعة فيه المهمين من أخلاف علي، صهر النبي.

قوَّم الرحالة في مشهد النتائج العلمية للقسم الثالث من رحلتهم. كان نيدرماير قد صور المرحلة بكاملها، بينما كان مجموعته الجيولوجية تضم 230 عينة حجرية من الجص والفحم والجورا والسيلور[31]. ثم انطلق من مشهد ليدرس سلسلتي الجبال إلى الشرق والجنوب من المدينة. تلك كانت واحدة من أكثر مهام الرحلة إثارة، لأن الأمر تعلق هنا بسلاسل جبال إيرانية ترتبط بالهندكوش عبر بامير، وتتصل بجبال أفغانستان المرتفعة وغير المدروسة بعد. هكذا سار نيدرماير وديتز أول الأمر في اتجاه الحدود الأفغانية نحو ذو الفقار، وانحدرا من هناك في نهاية أيار مطلع حزيران عام 1913 فمرا بهيريود في طريقهما إلى سرخس. كانت الحرارة تبلغ ستة وثلاثين إلى أربعين درجة

31. لم يعد ممكنا للأسف استعادة مجموعة نيدرماير، لانه أعيد تنظيم المجموعة الجيولوجية في جامعة إيرلنجن، بعد تقاعد لينك.

في الظل، فأجبر الحر ونقص الماء الرحالين على القيام بمسيرات ليلية كبيرة، حتى أنهما قطعا مع بغالهما في إحدى الليالي سبعين كيلومترا. أما التجارب التي تم الحصول عليها خلال هذه المرحلة من الرحلة، فقد أعانت نيدرماير بعد عامين على قيادة البعثة الألمانية في ظروف أصعب بكثير عبر صحارى آسيا الوسطى نحو حيرات.

أمضى الرجلان بقية الصيف في مدينة مشهد الشيعية المقدسة، يدرسان ما بحوزتهما من لقى ومجموعات. حدد نيدرماير صنف حوالي 160 مستحاثة كان قد جمعها خلال المرحلة السابقة من الرحلة، قبل أن يغادر الموكب الأخير المدينة في الحادي عشر من أيلول عام 1913، ويكون عليهما إرسال مجموعات ونصوص مطبوعة ورسوم وصور ويوميات أثناء اجتياز طريق العودة الطويل إلى أوروبا. في اليوم التالي، غادر الرحالان على طريقين مختلفة في اتجاه الجنوب، وقد قررا الالتقاء من جديد في تورشيز، كي يجتازا معا صحراء كبير الملحية.

في التاسع والعشرين من أيلول، وبعد أسبوعين من انفصاله عن ديتز، أذاعت وكالة رويتر البريطانية للأنباء أن الرحالة الباحث أوسكار نيدرماير هوجم ونهب في شرق بلاد فارس. خاف أقرباؤه على حياته، لكنه تبين أن قلقهم لم يكن مسوغا، فقد وصلت منتصف تشرين الأول رسالة منه إلى أهله يصف فيها الحادث، ويخبرهم أنه بعد أن قام أول الأمر بمسيرات نهارية طويلة من مشهد في اتجاه توربات، انتقل نحو الغرب إلى قرية جبلية نائية، حيث أحسن معارفه استقباله. بعد أيام من الإقامة، غادر مع عدد من الحمير في اتجاه جنوبي غربي، فأقام مقراً ليليا قرب مناجم نحاس مادور المهجورة، وتحصن في فرن قديم وفي حوزته سلاح ومال وبعض الأدوات. بين الثالثة والرابعة فجرا استيقظ على أصوات واكتشف أن قسما من الأمتعة الموضوعة في الخارج قد سرق. كان الضرر محدودا، لكن الأدوات التي يحتاجها من أجل الخرائط اختفت وكان من المحال تعويضها. هل كان الأمر

مصادفة؟. كان نيدرماير وديتز في مشهد ضيوفا على منزل القنصل البريطاني بيرسي سايكس، الذي التقت عنده خيوط السياسة البريطانية في شرق فارس. عندما اقترب الضابط الألماني المتعطش إلى المعرفة من منطقة النفوذ البريطاني، كان يفتقر إلى تلك الأدوات بالذات، الضرورية لقياساته.

واصل نيدرماير ترحاله رغم الحادث. كان عدد قليل من الرحالة الأوروبيين بينهم السويدي سفن هيدين، قد اجتازوا قبله كبير، صحراء الهضبة الإيرانية الملحية. وبالمناسبة، كان هيدين قد اختار مكانا أقل غنى من الناحية الجيولوجية، بمقارنته مع طريق نيدرماير، الذي وصف باعتزاز المستكشف حوض الملح المستنقعي الإيراني: «اجتزت الكبير قبول هطول الأمطار الشتوية الأولى حين كانت في أكثر حالاتها جفافا. لهذا السبب، تمكنت من تعيين الحدود الحقيقية لقاعها الرطب على الدوام». ثم يقول الرحالة بلغة علمية صارمة لكنها مشخصة: «من الجلي أن الانتفاخات والسطوح الملحية كانت تقدم حماية غير عادية ضد التبخر، وأن أرض كبير كانت تحافظ تحت هذا الغطاء الملحي على بلل ورطوبة دائمين، علما بأن تكونها من مواد ناعمة بدرجة غير مألوفة لها ثبات مادة مهروسة كثيفة الجريان، جعل كثافتها تتناقص كلما ازدادت عمقا». أخيرا، يلخص نيدرماير بوعي الواثق من نفسه ملاحظاته على النحو التالي: «علينا أن نرى في هذه الظاهرة نمطا خاصا من «انديا‌ح الأرض»، لم يسبق لأحد ان وصفه حتى الآن»[32].

تلقت أسرة نيدرماير نبأ سعيدا في 16 تشرين الثاني هو وصول البعثة إلى أصفهان، المدينة الواحة في جنوب فارس. بعد أيام استجمام قليلة، رحل نيدرماير وديتز عبر المدينتين الأخمينيتين القديمتين بازارجادي وبيرسيبوليس نحو بوشهر على الخليج، حيث أمضى نيدرماير هناك أياما من

32. أوسكار ريتر فون نيدرماير: الأحواض الداخلية للهضبة الإيرانية، ميونيخ 1920، ص 57.

شهر شباط عام 1914 في القنصلية الألمانية، وتعرف على سكرتيرها فيلهلم فاسموس، الذي دافع في هذا المكان القصي عن المصالح الألمانية، وحصل على «انطباع مؤثر عن شخصية نيدرماير القوي الإرادة والمتماسك». وقد كتب يقول: جمع نيدرماير سائر الصفات الممتازة لضابط ألماني يمتلك معارف هائلة ونظرة واسعة إلى العالم»[33].

مر طريق الرحالين نحو أوروبا بالهند، فزارا أحياء السكان الأصليين في بومباي، واجتازا شبه القارة بالقطار، وتفقدا أكرا وتاج محل، ورأى نيدرماير مواقع الحرق ومعابد القرود في بنارس، وأمضى بضعة أيام في كلكوتا، وقام بقفزة سريعة إلى دراشيلينج عند أقدام الهيمالايا، وسافر أخيرا بالقطار عبر مدراس إلى سيلان، حيث كان البريطانيون قد مدوا حديثا سكة حديدية ربطت الجزيرة بشبه القارة الهندية، وزار دون عناء أنوراداهبورا، مدينة السيخ الملكية القديمة بأبراجها ومعابدها البوذية وزرائب فيلتها. ركب نيدرماير وديتز السفينة في كولومبو وعبرا المحيط الهندي في نهاية آذار، وحين وصلا في الرابع من نيسان إلى عدن، صور نيدرماير مرافق المرفأ وصهاريجه المهمة استراتيجيا.

درس نيدرماير خلال رحلته التي استمرت شهرا واحدا عبر الهند الظروف السياسية والاجتماعية في المناطق البريطانية الأكثر أهمية وراء البحار، وتوصل إلى اقتناع بأن سيطرتهم على شبه القارة غير مهددة، وأنه ليس للنخبة القيادية البريطانية أن تخشى فقدان جوهرة تاجها. لكنه أدرك في الوقت نفسه أن الامبراطورية البريطانية ليست هيئة عامة نموذجية، فالساسة الاستعماريون البريطانيون وموظفو إدارتهم ليسوا بأي حال ممثلين ليبراليين لديموقراطية تمتلئ بالحرية، بل ممثلون أرستقراطيون لأمبراطورية تشمل بالعالم، يتيح لهم تأهيلهم الجيد وحراكهم الفكري السيطرة بطرق ماكرة

33. درجوبيرج فاسموس: لورانس الألماني، لايبزيج 1937، ص 65.

ودقيقة على شعوب الشرق الخاضعة، التي يستغلونها ويضطهدونها.

في مصر، المحطة التالية من رحلته، كانت يد البريطانيين المحيطة بالعالم منظورة أيضا، فقناة السويس، التي اجتازها نيدرماير يوم التاسع من نيسان عام 1914 على متن سفينة، شريان حياة امبراطوريتهم، بينما مصر نفسها مجرد واحدة من محمياتهم. خال نيدرماير أن الزمن توقف في أسواق القاهرة القديمة، والأقصر، والكرنك وطيبة؛ وإنه يقابل هنا بشرا وطبائعا تجسد دينا عمره قرون، وتاريخا وصل إلى ألف عام. كانت المساجد تدل كقلعة القاهرة على بهاء الفن الإسلامي، بينما شهدت الأهرام سيطرة البطالمة والرومان والمماليك الأجنبية. وقد راقب في العشرين من نيسان عام 1914 من غرفته في فندق «قصر الشتاء» عاصفة رملية غطت معبد الأقصر بالرمال.

أخيرا، غادر الرجل ورفاقه مجال السيطرة البريطاني، ليبدأ القسم الاخير من رحلته، الذي أوصلهم يوم 20 نيسان إلى القدس، المدينة التي كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية، لكن جميع القوى المسيحية كانت لها مبان فخمة فيها، ولعب الرهبان الدومينيكانيون دورا في جهازها التعليمي أكثر أهمية من دورهم في فرنسا. زار نيدرماير الكنيسة الروسية في حديقة جيتيسمان، ووجد أن للامبراطورية النمساوية/المجرية مشفى وقنصلية عامة ودائرة بريد، وللألمان كنيسة صهيون والقيامة، بينما انتصب فوق تل يشرف على المدينة من خارجها وقف أوجوستا/فيكتوريا، المبني على طراز حصن من حصون الأخوية الألمانية.

تواصلت الرحلة عبر دمشق وآثار بعلبك نحو مركز الشرق بيروت، حيث راقب الرحالتان من شاطي النزهة سفنا حربية نمساوية، وزارا المدرسة الاميركية وتنزها في غابات الصنوبر عند أقدام جبل لبنان. أخيرا، وفي منتصف، أيار اقترب الرجلان من وطنهم، فبعد إقامة قصيرة في قونيا، حيث زار نيدرماير الدراويش الراقصين، وصلوا إلى اسطنبول، ورأى الرجلان من

غرفة فندقهما مرة أخرى الهلال الذهبي، قبل أن يحملهم قطار الشرق السريع إلى فيينا عبر بودابست، ويفترقا من جديد.

وصل نيدرماير في نهاية شهر أيار من جديد إلى بافاريا، حيث كان ينتظره الضيق الفكري والروتين الوظيفي داخل أسوار معسكر من معسكرات الإقليم الفرانكي، ووجد نفسه من جديد في مواجهة تراتبيات جامدة وتقاليد اجتماعية صارمة، دون أن يخطر له أنه سينطلق بعد فترة قصيرة في مهمة سرية جديدة إلى الشرق.

## عشية الحرب العالمية

حركت رصاصات سيراجيفو يوم 28 حزيران عام 1914 عتلات التحالفات بين القوى الأوروبية الكبرى. ومع أننا لا نعرف كيف كان رد فعل أوسكار نيدرماير في شهر تموز الصيفي الحار على تفاقم الازمة الدولية، الذي أدى إلى الحرب العالمية، فإننا نظن أنه تابع بأعظم قدر من الاهتمام وبتوتر متزايد الحركة الديبلوماسية المحمومة في عواصم المتروبولات.

وكانت رحلته الفارسية قد قادته عبر بلاد وجدت نفسها أسيرة انحلال دولي واجتماعي، بعد أن انتشرت بين عامي 1905 و 1909 حركة ثورية في إيران، وطالب الديموقراطيون والقوميون ورجال الدين الشيعة بدستور وجمعية تأسيسية، وحرضت جمعيات سرية سياسية ودينية على التغير الاجتماعي، لكن جهودها دارت في فراغ بسبب اتفاق لندن وبطرسبورغ في آب 1907 على تقسيم بلاد فارس إلى مناطق نفوذ، أفقدتها دولتها المركزية، بما أن الروس راقبوا شمال البلاد والبريطانيون جنوبها، وكان بينهما منطقة غير مستقرة خضعت لما تبقى من سيادة فارسية عرفت تقييدات شديدة، نال الفرنسيون فيها حق التنقيب عن الآثار دون قيود أو شروط، فلم يعد الفرس رغم جهودهم الثورية سادة تاريخهم الخاص، الذي كان الفرنسيون يدرسونه الآن ويكتبونه.

تعرف نيدرماير وديتز في مشهد، التابعة لمنطقة النفوذ الروسية، على حقيقة بلاد فارس، وهما اللذان كانا على صلة بمنزل القنصل البريطاني هناك بيرسي سايكس، فحمتهما ضيافته ورعايته من السلطات الروسية. عرفانا بالجميل، طرح نيدرماير بعد عودته فكرة منح سايكس وساما من ملك بافاريا، لكن البريطاني تلقى عوضا عن ذلك هدية تعبر عن الشكر هي «صورتان لجلالة الملك يحتويهما إطار فضي يحملان توقيعه السامي»[34]. هل تلقى سايكس الهدية؟. انقلب الرجل بعد فترة قصيرة إلى المناهض الأكثر خطورة للعمليات الألمانية في جنوب فارس الخاضع للرقابة الإنجليزية، وزعم أن نيدرماير كان يستطلع عام 1913 إمكانيات القيام بأنشطة ألمانية في الحرب القادمة[35]. مهما يكن من أمر: فقد ثمّن ستريزجوفسكي في نهاية الحرب العالمية الأولى العون الذي قدمه سايكس صيف عام 1913 إلى نيدرماير وديتز. وقال بلباقة العلماء: «لا يجوز أن تحول الحرب الراهنة بيننا وبين التعبير عن شكرنا الأكثر صميمية للجنرال سايكس»[36].

كشفت فارس لعيني نيدرماير جسامة تغيرات السياسة الدولية، التي أطلقتها الحرب الروسية/ اليابانية عام 1904/ 1905. بسبب ضعف أمبراطورية القيصر، تحولت ألمانيا إلى أخطر منافسي الامبراطورية البريطانية. لكن التفاهم الروسي/ الإنجليزي حول التيبت وأفغانستان وفارس حرم السياسة الألمانية عام 1907 فرصة لعب دور الثالث الضاحك، الذي يناور بين القوة البرية الروسية والقوة البحرية البريطانية. وزاد الطين بلة أن فرنسا دعمت توازن المصالح الروسية/ البريطانية، بسبب ارتباطاتها التعاقدية منذ عام 1894 مع روسيا و1907 مع الامبراطورية البريطانية. صحيح أن التحديد المكاني لمنطقتي نفوذ الجانبين في فارس يلزمهما بانتهاج سياسة مشتركة حيال برلين،

34. أرشيف الدول الرئيس في ميونيخ، الوثيقة رقم 11792.

35. بيرسي سايكس: تاريخ فارس، مجلدان، الطبعة الثالثة، لندن 1930، ص449.

36. إرنست ديتز: نصب معمارية خراسانية. برلين 1918، ص 8.

لكنه بدا على درجة رفيعة من الخطورة بالنسبة إلى ألمانيا، جعلت مستشار الرايش فون بولوف يتحدث في تشرين الثاني عام 1906 للمرة الأولى عن «التطويق»، وغدا من غير الممكن، منذ تلك اللحظة، أن تستبعد برلين احتمال مواجهة تحالف يضم القوى العظمى روسيا وفرنسا وبريطانيا، عند نشوب الحرب.

اعتقد نيدرماير وهو يلقي نظرة على الماضي أن باستطاعة ألمانيا تجنب هذا الاحتمال. وحاول في الثلاثينات، حين كان أستاذا لنظرية العلوم العسكرية العامة في جامعة برلين، أن يرسم أمام طلابه صورة أكثر تفصيلا عن النقطة التي انطلقت منها الحرب العالمية، فرق فيها بين تقويم الوضع العسكري / الاستراتيجي، الذي أجرته القيادة العامة للأركان الألمانية، وبين المسؤولية العامة الأعلى لحكومة الرايش. قال نيدرماير إن نقطة انطلاق خطط الأركان العامة التي اقتصرت على أوروبا، كانت موقع ألمانيا الوسطي بين فرنسا وروسيا، ووجود مركز ثقل الصناعة الألمانية في الغرب، على نهري السار والرور وفي بلاد الراين القريبة من حدود مهددة. وأضاف إن الوقت سيعمل عند نشوب الحرب ضد الرايش، المرتبط بالواردات. لهذه الأسباب، كان على الاستراتيجية العسكرية والتخطيط العملياتي أن يركزا على قهر العدو في الغرب عبر ضربات هجومية سريعة، يزيد من ضرورتها وأهميتها أن الرايش لا يستطيع، كدولة صناعية عالية التطور ومنطقة كثيفة السكان، خوض حرب دفاعية تستمر زمنا طويلا في أرضه.

اعتقد نيدرماير أن قرار القيادة الألمانية شن حملة عسكرية خاطفة في الغرب صائب وقابل للتحقيق من وجهة النظر العسكرية، بل ان اختراق أراضي بلد محايد كبلجيكا، المخالف للقانون الدولي، كان يجب أن يدخل في إطار التخطيط العملياتي، لأن لندن ستدعم فرنسا وروسيا ضد الرايش الألماني في حالة نشوب الحرب، حتى إن احترم الحياد البلجيكي. ثم من يضمن أن تحجم باريس ولندن عن تهديد حوضي الراين والرور عبر

بلجيكا؟. ثمة إذن تأملات استراتيجية مقنعة تدعم خطة شليفن، ويتفق تقويم الوضع وتخطيط الأركان العامة كل الاتفاق مع أهداف ألمانيا، لأنهما صحيحان[37].

إلا أن سلوك القيادة السياسية المسؤولة قبل وبعد أزمة تموز لم يكن مبررا في نظر نيدرماير، لأن السياسة الألمانية المبنية على اعتبارات تتعلق بالهيبة استهدفت زيادة الإجماع الداخلي، مسؤولة عن عزلة ألمانيا الخارجية، وأثقلت أعمال ديبلوماسية خاطئة استمرت سنوات كثيرة على العلاقات مع القوى الأوروبية القارية، وخاصة منها فرنسا وروسيا، واستفز الرايش الامبراطورية البريطانية دون مسوغ عبر سياسة بناء الأسطول والدعاية البحرية. إن «تطويق» ألمانيا كان نتيجة أخطاء سياساتها، ومنها في رأي نيدرماير سكة حديد برلين / بغداد، التي حشرت ألمانيا بين المصالح الروسية والبريطانية في منطقة مليئة بالمخاطر.

بالإضافة إلى ذلك، كان هناك أخطاء تنظيمية جسيمة في حكومة الرايش، منها أن حقبة السلام لم تشهد نشوء «ارتباط عضوي» بين القيادتين السياسية والعسكرية، بين حكومة الرايش والاركان العامة. صحيح أن المستشار بيتمان / هولفيج عرف قبل أزمة تموز بوقت طويل أن الأركان العامة خططت للتقدم في أراضي بلجيكا المحايدة عند نشوب الحرب، لكنه لم يقم بمشاورات مسؤولة حول العناصر الضرورية لاتخاذ قرار كهذا، ولم يجر موازنة سياسية جدية بينها. بذلك حلت الثقة العمياء في القوة العسكرية الخاصة محل الحساب الديبلوماسي والتدقيق المتأني، ولم يجر أي تقويم صحيح لنقاط ضعف الحلفاء وقوة الأعداء، حتى أن نيدرماير وصف أمام طلبته البرلينيين علاقات القوة الحقيقية قبل اندلاع الحرب العالمية على النحو التالي: «كان لدى فرنسا بملايينها الأربعين من السكان قوة مؤهلة عسكريا

37. أوسكار ريتر فون نيدرماير: السياسة العسكرية، الجزء الثاني، ص 22 ـ 73 .

تعادل ما لدى ألمانيا بملايينها الـ67. وكان استعداد الجيش النمساوي / المجري للتعبئة أسوأ من ذلك بكثير، رغم أنه كان حليف ألمانيا المؤكد الوحيد».

من هنا، كان على حكومة الرايش استخلاص نتائج مغايرة للنتائج التي استخلصتها ضمن الوضع الاستراتيجي والسياسي القلق لعام 1914، شرحها نيدرماير لطلبته بوضوح مستفز، مؤكدا أن الأمر كان يتعلق بحسابات سياسية وليس بعواطف أو بهيبة وطنية، وأنه كان على برلين تفادي النزاع العسكري عام 1914، والعمل لإحداث تبدل يجعل الوضع الدولي مختلفا بالنسبة لها. لقد تصرفت القوى الأخرى بطريقة مشابهة، فقد تحاشت فرنسا النزاع العسكري خلال أزمة فاشودا عام 1898، واستخلصت روسيا نتائج من هزيمتها أمام اليابان عام 1907، وراهنت على المستقبل.

حذر نيدرماير طلبته قائلا: «إن مسألة عزلة ألمانيا ما كانت ستحل دون تخل وربما دون إذلال»، بل إنه تحدث عام 1940 عن «عصر ليبرالي / رأسمالي سبق الحرب» تتحمل قيادته السياسية المسؤولية عن كارثة الحرب العالمية الاولى. هل كانت هذه تعبيرات نقدية عن الرأي، قدمها أستاذ جامعي دفع إلى حافة السياسة، تعينت حياته من خلال حرب خاسرة، وانفجارات ثورية، وإقامة دامت سنوات عديدة في الاتحاد السوفياتي؟. ليس ثمة دليل يشير إلى أن الملازم الأول ابن التسعة وعشرين عاما كان صيف عام 1914 يخلو من العواطف السياسية، التي اجتاحت جميع مدن أوروبا الكبرى، وأدت إلى قيام مظاهرات جماهيرية، وهللت في النهاية للحرب ورحبت بها.

وجد نيدرماير في الفترة بين عودته إلى وطنه وانفجار الحرب الوقت والفرصة للاهتمام بالتقويم العلمي لنتائج رحلته البحثية. وكان قد سلم مجموعته التي حملها من فارس إلى متحف الدولة لعلم الشعوب. ويشير

كتاب الجرد إلى أنه تم دفع مبلغ 30،2148 ماركا مقابل 214 مادة مشتراة، تتكون قبل كل شيء من خزف وأعمال معدنية ومنسوجات من القرنين الثامن والتاسع عشر[38]، تعتبر، إلى جانب مجموعة ميتسجر، أكبر مجموعة فردية من الفن الإسلامي يضمها متحف ميونيخ حتى اليوم. وكان نيدرماير قد حصل عليها في بازارات مشهد وطهران، مقابل أموال قليلة ودون طلب إدارة المتحف.

يعتبر الخبراء مجموعة نيدرماير «مجموعة تاريخية فنية / إتنولوجية غير تقليدية، تتخللها عناصر دخلتها بالمصادفة»[39]. لم يكن نيدرماير مؤرخ فن، بل كان جغرافيا بالدرجة الاولى. ومع ذلك، يوجد في مجموعته أصناف متنوعة من بلاط شمال شرق فارس. وتؤكد الأشياء التي جلبها معه أن اهتمامه انصرف بالدرجة الاولى إلى بشر تلك البلاد، وأنه وجد مدخلا إلى «الأغوار العميقة في حياة شعب إيران»[40]. إن الاشكال الخاصة للعقيدة الإسلامية، التي وصفها أستاذه ياكوب وتتم ممارستها في أخويات سرية، كان لها أهمية خاصة في نظر نيدرماير، لكونها تضم أردية وتجهيزات تخص «المريدين الإسلاميين»[41].

38. متحف الدولة لعلم الشعوب في ميونيخ. رقم الجرد 13 ـ 12 ـ 1 حتى 13 ـ 12 ـ 214.
39. يانيس كروجر: الفن الإسلامي، الجزء الثالث.
40. يانيس كروجر: محافظ المتحف الإسلامي، وقفية أملاك بروسيا الثقافية، بمناسبة حديث أجريته معه يوم 14 آذار عام 2001 في برلين.
41. يورجن فرمبجن: أردية وتجهيزات المريد الإسلامي. فيسبادن 1999. ص 24، 36 ن 94، 120، 166، 198، 244.